د. منير لطفي

مقامات أبُقراط

دار البشير

مَقامات
أبُقراط

الطبعة الأولى
1441 هـ / 2020 م

اسم الكتـــاب: مَقامات أبْقراط
المـــؤلـــــف: دكتور منير لطفي
موضوع الكتاب:
المراجعة اللغوية: عبدالقادر أمين
عدد الصفحات: 208 صفحة
عدد المـــلازم: 13 ملزمة
مقاس الكتـاب: 14 x 21
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـم الإيـــداع: 2019 / 25732
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 790 - 6 :ISBN

التوزيع والنشر:

دار البشير للثقافة والعلوم

القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 01012355714 - 01152806533
E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

© copyrights

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

دار البشير للثقافة والعلوم

د/ منير لطفي

مَقامات أبُقراط

دار البشير للثقافة والعلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

«فأمّا الزَّبد فيذهب جُفاء وأمّا ما ينفع النّاسَ فيمكث في الأرض»

الرعد 17

الإهداء

إلى شيوخي من أهل القرآن، فِي الكَتاتيب سالفة الأزمان،
محمّد ونصر وعثمان، بوّأهم الله أعلى الجِنان.

تقريظ

بقلم: وليد كسّاب
دكتوراه الأدب، عضو اتّحاد الكُتّاب

يقول ابنُ كسّاب المُقبل بذنبه، والرّاجي عفوَ ربّه، المتلمّس الصّفح من الغفّار، ومَن إليه المرجع والقرار:

أمّا بعد.. فقد وقفتُ على مقامات بهيّة، بماء الذّهب مطليّة، زادت ثِنتيْن عن حدّ العشرين، وتَشرَّب كاتبُها أسلوبَ المثاني والمئين، تُضارع ما خطّه الأوّلون من إبداعات، وما تَقدَّم من فاخر المقامات، فالحُسن لها عنوان، وهي والظّرف صنوان، تُخبر عن ثراء لغةِ صاحبها، واستقامة لاحِبها، وفيها من دروس الحياة، وأخبار الرّواة، وحكمة العقلاء، وآداب الفضلاء، وبيان السّادة البلغاء.

أمّا كاتبُها فطبيب حاذقٌ في مهنته، وكاتبٌ سامق في رتبته، جمعَ بين الحكمة والأناة، واللّفظة المُحَلّاة، تأتيه الكلماتُ طائعة، فإذا بها للبهْجة صانعة، ولصنوفِ الأدب جامعة، طويل النّفس في

الإبداع، قادرٌ على السبْر والإمتاع، فالقارئ به محظوظ، وحريٌّ بأن تكون للدّراسة منه حظوظ، إذ هو مستحقٌّ لكلّ حفاوةٍ واهتمام، ونقدٍ وحفظٍ وإلمام.

وأمّا راويها فأبُقراط بن قحطان، وهو هجينٌ من العرب واليونان، أَنطقَه الكاتبُ بلسانٍ عربيٍّ مبين، يضارع أفذاذَ العرب وكذا المستعربين، ولا غرو أن يُسمَّى راوي المقامات بأبقراط أعظمَ الأطباء، الذي يدين له المرضى والأصحّاء، إذْ جرَت على لسانه الحكمة عذبة رقْراقة، ولا تزال علومه عبر العصور دفّاقة.

وإجمـالًا فقد أحرز منير قصبَ السبْق والرّيادة، وأحسن الحسنى وزيادة؛ فعسى الله أن يكتبَ لمقاماته القبول، ويرزقها الذّيوع والوصول، والله وحدَه المقصود، وهو ربّ الكرم والجود.

كتبها وليد بن عبد الماجد بن جبريل بن إبراهيم بن كساب، وفي صباح يوم السّبت ٢٠ صفر ١٤٤١هـ، الموافق ١٩ أكتوبر ٢٠١٩م كان التّمام، والحمدُ لله على ما وهبَ من إنعام.

***

المقدّمة

بعد حمْد الله المَنّان، المُنعِم بالوجود والإيمان. وبعد الصّلاة على النبيّ العدنان، أوّل مَن يطأ الجِنان. والسّلام على الآل والأصحاب، والتّابعين إلى يوم المآب.. فهذه مقاماتٌ أُزْجيها، وإلى القرّاء أُهْديها.. آملًا لها القَبول، والشّروق بلا أفول. فالفضيلة شمْسها، والحقّ همْسها. والخيْر نهْرها، والجمال بدْرها. نظمْتها على نهْج الأوّلين، ذوي السّبْق والسّبْك المَتين. عدا عن اختلافات فرعيّة، لا تفسدُ للودّ قضيّة. فكما لكلّ بَنانٍ بصمته، ولكلّ دم فصيلته، فإنّ لكلّ شيخٍ طريقته. وكما لكلّ عصرٍ رجاله، فإنّ لكلّ زمانٍ مقاله. مع الإقرار بما بيني وبينهم في المنزلة، والمكانة الرفيعة الهائلة. كما بين الأرض ذات الصّدْع، والسماوات السّبْع. وما بين ساقيةٍ تدور، وبحرٍ يمور.

وقد زادت في العدد ثِنتَيْن عن العِشرين، كآيات السُّورة الخامسة والثّمانين[1]. وكلماتها كذلك في العِشرين، ولكن بالألوف لا بالمئين. وها هي تُطبَع في السّنة العِشرين، بعد الألْفيْن كما يَبين. وكأنّها والعِشرين، كالوجْه والجبين، أو الرّحِم والجنين! أوْعزتُ

(١) أيْ سورة البروج؛ والتي جاءت خامسة وثمانين في ترتيب السّوَر، وعدد آياتها ثنتان وعشرون، وتقع في الجزء الثلاثين من القرآن العظيم.

روايتَها إلى أبُقراط، الشّهير كسقراط. ولكنّه مِن حملة المباضع، ونجمُه في الطبّ ساطع. في الواقع يونانيّ، وفي المقامات قحطانيّ. بعروبته حفِيّ، ولأرومتِه وفيّ. كما بإسلامه مهموم، ولِعِزّه يروم. أمّا موضوعاتها فعصريّة، تمسّ الحياةَ اليوميّة. وفيها من الفوائد، ما يبزّ لذيذ الموائد، وعذْب القصائد. بعدما جالت كلَّ اتّجاه، كسفينة في مياه. وقطفَت من كلّ بستان زهرة، ورشَفَت من كلّ غدير قطرة. وقد انْتَويْتُها تُؤثِّر وتُعجب، وللسّلوك الحميد تُنجب. ورجوْتها ثريدًا للجائع، ومنارة للضائع. وأُنْسًا للمَلال، ونزهةً عند الكَلال؛ ليجد كلُّ واردٍ عليها بغْيتَه، ويعثر فيها على ضالّته. فهنا فائدةٌ أدبيّة، وأخرى علميّة. وهناك مُلْحة وظَرْف، يهنأ بها الطَّرْف. وهنالك قصّة مُثيرة، وحكمة مُنيرة، ودعوةٌ إلى الله على بصيرة. وقد نأيْتُ بكلماتها عن الغريب، وتوخَّيتُ السّهلَ القريب. فليس كالماء الزّلال رِيّ، وليس كالماءِ العَسِر عَيّ. ومَن على النّاس يسَّر، عليه الله يسَّر.

ثمّ إنِّي رتّبتُها وفْقًا لزمن تسْطيرها، وطبْقًا لوقت تحْبيرها وتحريرها. فجعلتُ في صدْرها الجديدَ الوليد، وفي عجزها القديمَ التّليد. وأُشهِد الله أنّها من سواد يَراعتي، وبياض ورقتي. ومِن كبدِ فأْرتي، وأحشاءِ شاشتي، ورئة مفاتيح لوْحتي. ولا تثريبَ على القارئ إنْ بدأ بخاصرتها قبلَ صدرها، أو طالَع ذيْلها قبل رأسِها.

بينما يقع التّثْريب إن طافَ بالحواشي طوفانَ الكرام، ومرّ بها مرور الغَمام. إذْ إنّها سياقات فنيّة، مُحمَّلة بمعانٍ ثريّة، ومدلولاتٍ زكيّة.

وهنا لا بدّ من إشـادة، بأصحاب السّيادة. الذين جعلوا المقامات ديوانًا، وللأدَب عنوانًا، وأسكنوها إيوانًا[1] بعد أن شقّوا الصّخور، وبذروا البذور. ومهّدوا لنا الطريق، لجنْي العقيق. بدْءًا بحاديها، مُنْشؤهاومُبْديها. ابن همذان، الملَقَّب ببديع الزّمان. ذو الحرف النديّ، والقلم السّخيّ. نظم منها المئات[2]، وإنْ لم يصلنا سوى العشرات. على ما عُمِّر من أجَلٍ قصير، ومُكْثٍ على الأرض يسير[3]! ومرورًا بابن عليّ البصْري، الملقَّب بالحريري. والذي ذاعَت مقاماتُه بين الأنام، وازدانت بتعاقُب الأعوام. فاجتمع عليها الشُّرّاحُ بالعشرات، وتُرجِمت إلى بعض اللّغات. ثمّ اليازجيّ العلّامة، بليغ عصره وأيّامه. في مقاماته (مجْمع البحريْن)، التي طافَت الخافقيْن. لنظْمه في عقْدها القلائد، وجمْعه في كفّها الخرائد.

هذا.. ومَن أراد الرّيادة، فعليه بالزّيادة. من هذا الأدب الرقيق، في زيّه الأنيق. المطرَّز بروعة البيان، والمرصَّع بشجيّ الألحان.

---

(١) الإيوان: بنيانٌ عجيب الصنع، صدرُه مكشوف، وسقفه معقود، ليجلس فيه كبار القوم، وأشهر الإيوانات إيوان كسرى.

(٢) في تقديمه لطبعة دار الكتب البيروتيّة، ذكر الإمام محمد عبده ما قِيل بأن بديع الزّمان أنشأ زهاء أربعمائة مقامة، لكنّ الناس لم يظفروا منها سوى بعددٍ قليل ينيف على الخمسين.

(٣) رحل عن الدنيا ابنَ ثمان وثلاثين لا غير (٩٦٩-١٠٠٧م)

والحائز في ديباجته الغُرَر، والكانز في أحشائه الدُرَر. فلكلِّ جادٍّ إيجاد، ولكلِّ زارعٍ حصاد. وطُوبى لمَن سعَى، ولهدفه وعَى. ويا سعدَ مَن طال أجلُه، وطاب بالطاعة عملُه.

ومع أنّي على مائدة الأدب أتطفّل، ولولوج بابه أتلطّف. إلّا أنّ سيّدي (وليد)، المقاماتي الفريد. وشهرتُه ابن كسّاب، ذو الخُلق العُجاب. قد وَشّى بذهب حرفِه أبقراط، بلا تفريطٍ ولا إفراط. فزاد نورَ مقاماتي ألَقًا، وأضاف لَعَرْفها عبَقًا. وفي هذا لا أُوفّيه حقَّه، ولا أحرّر بالدّولار صكَّه. بل أُهديه دعوةً بظهْر الغيب، تبلّغه حيث بلال وصهيْب.

هيّا بنا إذَن نبدأ، وإلى الله نلجأ. وبجلاله نعتضِد، وعلى حوْله نعتمِد. ليُفهِّمنا كسليمان عليه السّلام، ويعصمنا من الفتن والأوهام. فإنّه سبحانه قدير، وبالإجابة جدير. وآخِر دعوانا، أنِ الحمد لله مولانا. فالحمد عنوانُ القرآن (الحمد لله ربّ العالمين)[1]، وشعارُ أهل الجِنان (وقالوا الحمد لله الذي صدَقَنا وعده وأورثَنا الأرض نتبوّأ من الجنّة حيث نشاء)[2].

د. منير لطفي
كُتبت في سلطنة عمان
٢٠١٩-٢٠٢٠م

(١) سورة الفاتحة، آية ١
(٢) سورة الزّمر، آية ٧٤

المقامةُ الأولى

وتُعرَف بالكَيْديّة

حدّثنا أبقراط بن قحطان قال:

في يوم من أيّام الدّنيا الفانية، مُتِّعتُ بالأمن والعافية، فبكَّرتُ وعملْت، وفي الظهيرة قِلت. إذِ القيلولة روحُ النّهار، وسنّة النبيّ المُختار. وما إنْ حان وقتُ يقظتي، وغادرتُ غرْفتي، وشرعْتُ مقْلتي، حتى تَراءى لي في الصّالة، رجلٌ غريبُ الإطلالة. فحسبْتُني مازلتُ نائمًا، وفي أحلامي هائمًا. ولأنّي لستُ ممّن يستعينون على الصّحْوة، باحتساء الشّاي والقهوة. قلت: أُعرّج على المياه، أستجدي بها الانتباه.. ألم يقل اللهُ الحيّ، «وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ»[1]؟

(١) سورة الأنبياء، الآية ٣٠

وبعدما دبّت الحياةُ في أوصالي، ونشطتُ من عقالي، عدتُ إلى الصالة، فوجدتُها الحالة. رجلًا ذا لباسٍ وثير، مقيّدًا كالأسير. رقبته متدلّية، كمن ارتكب داهية! ولسانُ حاله يقول: وا ذُلّاه، أجِرْني يا الله. ثمّ اكتملَت الصّورة، بزوجتي الجَسورة، تجلس قُبَالته مستورة. بيُمناها تحشو الطعامَ في معدته، وبيُسراها تشفي بالماء غلّته. ولا تفتأ تُجبره على الأكل فيتوسّل، وتُعنّفه ليشرب فيتنصّل. وحولهما أطفال مبتهِجون، كمَن يشاهدون فيلمًا للكرتون.

ولّما عجبتُ لَمَا يَجري، وبتُّ كغافلٍ لا يدري.. قلت: أخبِروني على عجَل، وأنْقِذوني من الخبَل! فانبرى الرّجلُ للكلام، ولكن ألقمتْه زوجي الطعام، كجمَل صوّام. وباشَرَت هي فقالت: هذا أستاذٌ قليلُ الأصل، يُدرّس لابننا في الفصل. وفي أوّل النّهار، وأثناء الاختبار. طلب الولدُ الحمّام، ليفعل كما يفعل الأنام. فرفضَ سعادةُ الأستاذ، وسدَّ على الولد كلّ ملاذ! فبال المسكينُ على نفسه وتَغوّط، ومِن الخجل انزوى وعيّط[1]. ولّما زكمَت الرائحة الأنوف، تجمَّع حوله التلاميذُ بالألوف. وزفُّوه من المدرسة إلى البيْت، وسكبوا على النّار الزيْت. قلت: يا لك من أستاذٍ أخرَق، في محيطٍ من الجهالة تغرق! ألا تفهمُ يا أفنديّ، أنّ قضاء الحاجة فعلٌ لا إراديّ. ويقع تحت سيطرة

(١) عيّط: بكى، وهي كلمة فصيحة على غير ما يعتقدها البعض.

الجهاز العصبيّ، المكوّن من الدّماغ والحبل الشوكيّ. قال: هذا نظام صارمٌ في الاختبار، بعدما كثُر الغشّ والتعليم انْهار. قلتُ: للضرورة أحكام، فافْهم يا سليل الرَّغام[1]. وبقلَم الكبير، لا تكتب للصغير.

يقول ابنُ قحطان:

ثمّ إنّي لمّا سألته كيف ساقتْه قدمُه إلى حتْفه، ووقع في الشّباك رغم أنْفه.. قال: أوْهمتْني الهانمُ بدرس خاصّ لولدها، وما إنْ خطوتُ عتبةَ دارها، حتى قيّدني رجُلانِ من أهلها. قلت: وما هذه الجَوْقة من الأطفال، أكلّ هؤلاء لك أنجال؟! قال: بل أنا عاقرٌ لا ألد، وللدّواء لم أجد. وإنّما رجتْني حيْزبونكم[2] إحضارَ صفٍّ من الأولاد، للاحتفال مع المحروس ابْنكم بعيد الميلاد. ثمّ دمعَت عيناه، ورجَفَت شفتاه. وقال: ألَا ترى كم أنا طيّب وديع، لا أستحقّ هذا الفخّ الشّنيع! وانظر كيف تكالبَت عليّ الصُّروف[3]، وتكاثفت حولي الحُجُب والسُّجوف! ثمّ تماسك قليلًا وقال: فُكَّ أَسْري وحرِّرني يا أبقراط، وليكنْ بينك وبين تلك الحَيّة ألْفُ قيراط. فظَنّي أنّك منبعٌ للحكمة والفكْر، وهي مغارةٌ للكيْد والمكْر. وليتك تطلّقها على الفوْر، قبل أن تُؤكَل كأبيض الثّوْر. ولك عليّ أن أزوّجك، بهيْفاء غيْداء تُبهجك. عوضًا عن هذه الأحَرّ من تنّور مَسجور، ومِن بركانٍ بالحِمم يثور. فلطمَتْه الزوجةُ وأقْسمَت، وبالأيمان غلَّظَت

(١) الرَّغام: التراب.

(٢) امرأة حيزبون: عجوز سيِّئة الخُلُق.

(٣) الصُّروف: النوائب.

وأعلَمَت. أنْ لا يُطلَق له السّراح، ولا يَشمّ للشّارع الرّياح. إلّا بعد أن تمتلئ أمعاؤه ومعدتُه، وتكتظّ بالبول مثانتُه. ويبدأ مفعول (لاسكس)[1] المُدِرّ، وكذا (دوفالاك)[2] المُهِرّ[3]. ثمّ يَشتهي الحمّامَ ولا ينال، ويفعلها في ملابسه كالأطفال. ليُساق ساعتها كالمأفون، ويُزفّ زفّ المخْتون. قلت: الآن فهمْت، ولبقيّة الحكاية فطنْت. إذ عجبْتُ حين ظفر دوني بمائدة، عامرة بالفائدة. من خضراوات وفاكهة، ومشروبات فارهة. بينما بقيتُ أتلوّى من الجوع، حتى اختلَط عليّ الكُوع والبُوع.

واستنادًا إلى ما قاله أصحابُ المعالي، حجّة الإسلام الغزالي. مِن أنّ الصبرَ على لسان النّساء، ممّا يُمتحَن به الأولياء.. انتحيتُ بالزّوجة، وفي ألين لهجة.. قلت: ما تفعلينه يا سيّدتي ساديَّة[4]، يَنمّ عن نفْسٍ عدوانيّة، ذات ميولٍ انتقاميّة. قالت: صَه يا أبقراط، ما رُمتُ إلّا الإقساط. فالسنّ والعيْن، بالسّنّ والعيْن. والأنف والأذن، بالأنف والأذن. والبادي أَظلَم، وفي حقّ نفسه أَجرَم. واعلمْ أنّ النّساء ما كادت، إلّا من رجالٍ آذَت وعادت. وأنّ النّساءَ ليست كلهنّ، بعظيمٍ كيدهنّ. قلت: أمَا كان أولى أن نشكوه، إلى المدْرسة

(١) لاسكس: أشهر دواء مدرّ للبول في الوسط الطبّي.

(٢) دوفالاك: شراب لعلاج الإمساك.

(٣) المُهِرّ: المُطلِق للبطن، ويقال هرّه الدواء أي أطلق بطنَه.

(٤) السّاديّة: مصطلح في علم النفس قائمٌ على التلذّذ بإحداث الألم لدى الآخَر.

ليُجازُوه. فيأخذ القانونُ مجراه، ويبلغ العدلُ مداه. قالت: مُت يا حمار[1]، واطْربني يا زمّار! سيحوّلوه يا (الدَّلْعَدِي)[2] إلى التّحقيق، وينال العتابَ الرّقيق. هذا إن صادفْتَ إدارةً واعية، أعارتْك أذنًا صاغية! ألم تسمع الأمير شوقي يقول:

«وما نيْل المطالب بالتّمنِّي ولكنْ تُؤخذ الدنيا غِلابا»

يقول أبقراط:

ثمّ لمّا المرأةُ زمجرَت، وعن أنيابها كشَّرَت. ولعينيْها حمّرَت، وفي حقّي استنكرَت. أنْ أقف في صفّ المُذنب وأُعين، ولصَنيعها الحكيم أُدين. أيقنتُ أنّ قليلًا من الدكتاتورية، يُصلح الحياة الزوجية. ومِن ثَمَّ قطعْتُ فورًا الوساطة، وآثرتُ السّلامة. إذ يُحكَى أنّ الدِّيَكةَ عاشت في سلام، ونعمَت بالحبّ والوئام. ولكنّها احْتربَت ووقعَت في اللّجاجة، حالما ظهرَت بينهم دجاجة.. ويكفينا في ذلك أنْ نمرّ، على ملحمة أمّ عليّ مع شجرة الدرّ. ولله درّ ابن المقفّع حين قال:

«لا تأمَنّ إلى النّساء ولا تثق بعهودهنّ
فرضاؤهنّ وسخْطهنّ مُعلَّق بصدورهنّ

(١) مثل شعبي للدّلالة على طول البال والتأخير في تنفيذ مهمة ما.

(٢) الدَّلعدي: لفظ شعبي مصري قديم، وتحتمل معنى الإساءة بوصف الشخص المخاطَب بالعدوّ، أو الإحسان عبر الدّعاء للمخاطَب بالوقاية من العدوّ.

يُبدين ودًّا كاذبًا والغدْر حشْو ثيابهنّ
بحديث يوسف فاعْتبِر متحذِّرًا من كيدهنّ
أوَ ما ترى إبليس أخرج آدمَ مِن أجْلهنّ»

❊ ❊ ❊

المقامةُ الثّانية

وتُعرَف بالهاتفِيّة

حدّثنا أبقراط بن قحطان، قال:

بعد ستّة عقود، وسبحان المعبود. وصلتُ لسِنّ المَعاش، بلا عقلٍ طاش، ولا شللٍ رعّـاش. ولّما كنتُ صحيح القَدّ، لا أخطئ في العَدّ. قلت: دعُوني يا سادةُ أعمل، فإنّي كما تعلمون أرْمل. أناجي في النّهار الجدران، وتغْشاني في اللّيل الأحزان. ولا طاقةَ لي بالمقاهي، وما فيها من مَناهي. فأشنع الغلط، إذا الحقّ بالباطل اخْتلط. ثمّ إنّ المعاشَ هزيلٌ لا يكفِي، وللعوَز لا يَنفِي. قالوا: الشّباب على الأرصفةِ عاطل، ووجودُك بيننا باطل. فاجلس في البيتِ لا تُضام، تأكل وتشربُ وتنام.

وكالعادةِ مع خيْل الحكومة، أقاموا حفلًا وعَزومة. ثمّ أتحفوني بهديّة، في علْبةٍ بهيّة. وقالوا: هذا جوّال ذكيّ عبقريّ، من نوع سامسونج الكوريّ. وهو بينها الأذْكَى، ليرتقي بالبشَر النَّوْكَى[1]. بجناحه يطْوي المشرقيْن، وبشراعِه يجوبُ الخافقيْن. فيأتيكَ بالعالَم بين يديْك، قائلًا: لبّيْك وسَعْدَيْك[2]. ثمّ إنّه يفتحُ لك حسابًا بالفيس بُوك، فتتواصل مع الملك والصّعلوك. وتَلِجُ من خلاله إنستجرام، وتويتر والتليجرام. وتُراسلُ بالواتساب، الأحفادَ والأنساب. كلّ هذا بلمسةِ شاشة، ملوَّنةٍ كفراشة، تغمرُك بالبشاشة. ويرافقها من النّغمات، ما يوافق الرّغبات. فهذا يُعجبه النّهيق والمُواء، أو النّعيق والعُواء. وذاك يُطربه الغناء والهديل، أو الحِداء والصّهيل. وسبحان مَن قسَّم الأرزاق، بين الصّحيح والمعاق. فلولا اختلافُ الأذْواق، لكسَدَت الأسواق.

وعملًا بالنّصيحة، وقاكُم الله شرّ الفضيحة. شرعْتُ الفيس بُوك، لا عَدِمك أبوك، ولا فُضّ فُوك. فوجدتُه كعَرصة[3]، عليها من كلّ عجينٍ قُرصة[4]. إذْ فيه النُّور والنّار، والنّافع والضّار. بعدما ارتاده الصالح المَليح، والطالح القَبيح. وكذا الجادّ واللّعوب، والصّادق والكَذوب.

---

(١) نَوْكَى: جمع أنْوَك وهو الأحمق.

(٢) سَعْدَيْك: إسعادًا بعد إسعاد.

(٣) عَرْصَة: صفيحة من الحديد تُثبَّت في الفرن ليُنضَج عليها الخبزُ وغيرُه.

(٤) قُرصة: خبزة صغيرة مبسوطة مدوَّرة.

فهذا يكتبُ حكمة، وذاك يطلبُ خدمة. وهذا بالخير يَنْصح، وذاك للعيوب يَفْضح. وهذا يُبشّر بمولود، وذاك يُبْلغ عن مفقود. وهذا يمجّد الرؤساء، وذاك يلعنهم صباحَ مساء. وهذا يُوجز ولا يُخِلّ، وذاك يُطنِب ويُمِلّ. وكلٌّ بنفسه مُعجَب، كأنّ مثله لم يُنجَب! فيكتب أحدُهم الكلمتيْن، ويضع يده على الخدّيْن. ينتظر التّعليق والإعجاب، والمشاركة مِن الأحباب. وقد تجد وضيعًا في ركْبه الألوف، وعالِمًا لا أحد بصفحته يطوف! فطريق الحقّ قليل الأتْباع، والباطل كثيرُ الأشياع. وحدِّث ولا خوْف، عن ركاكة الحرْف، وهدْم النّحو والصّرْف.

أمّا الهِتْر[1] فجَمّ، وشاع فيه وعَمّ. وخُذ مِن المثال، جاري (فتحي) البقّال. ففي صفحته يحْتال، ويدّعي أنّه رجل أعمال. تخرّج في كامبريدج[2]، وزميل زوكربيرج[3]. وزوجة ابنه عطيّة، تُنظِّر في السّعادة الزوجيّة. مع أنّ لها من الضّرْب ورديّة، صباحيّة وأخرى مسائيّة. ولمّا كان الحالُ كذلك، واجتنابًا للمَهالك. قلتُ: والله هذا سُوق، لا يليقُ لي ولا يروق. إذ يعجّ بالثّرثرة، والإشاعات المبعثَرة. حتّى اختلطَت فيه الأمور، واقترب الظلُّ مِن الحَرور[4].

(١) الهِتْر: الباطل، الكذب، السَّقَط من الكلام.

(٢) كامبريدج: جامعة بريطانية عريقة، تتقدّم جامعات العالم في تصنيف التعليم الجامعي.

(٣) زوكربيرج: مارك زوكربيرج، مؤسس موقع الفيس بوك، رجل أعمال ومبرمج أمريكي، ولد في ١٩٨٤م.

(٤) الحَرور: حرّ الشمس.

يقول ابنُ قحطان:

وما إنْ عرّجْتُ على إنستجرام، وزوّارِه الكرام. حتى رأيتُ القومَ يحْتفون، بالصُّوَر ويتَشاركون. بعد التقاطِها بثقبٍ خفِيّ، في قفا الهاتف الخلويّ. ومع أنّهم قليلو الكلام، إلّا أنّ حالَهم ليس على ما يُرام. فهذه تُصوِّر حين تطْهو، وحين للبطن تَحشُو. وتلك لمفاتنها تُظهِر، ومع الشيطان تُبحِر. وهذا بكتابٍ يُلوّح، وعن نفسه يُروِّح. وآخَر على الشّاطئ يَصطاف، في لباسٍ لا يسترُ الأرْداف. وثالث عن تجارته يُعلِن، أو عن دواءٍ لمرضٍ مزمِن. وهذا بالتّصوير مهْووس، يصوّر كلَّ ملبوس، حتى حذاءَه من نوع (المَندوس)[1]. وكذا جلدَه الملْدوغ بالنّاموس، وذراعَه المَجبوس. ولا ينسى ضرسَه المنْخور بالسُّوس، ووجهَه العَبوس. وكأنّه في بثٍّ مباشر، على مدار السّاعة ناشر. وأظنّ التّصوير لنْ يفوته، لحظة قبْض روحه! ولْيرحمْنا الله برحمتِه، حالَما نقعُ في قبْضته.

وبينما الليلُ جَنّ، والبدنُ للنّوم حَنّ. وضعْتُ الهاتف إزائي، وتَعطّرتُ بدعائي. عسى الله يفرّج عن المَحزون، ويُسهّل لنا الحُزون[2]. ولكنْ هيهات للنّوم أن يكون، في جوار هذا الملعون. فهذه رنّةٌ لمكالمةٍ مجهولة، وأخْرى لرسالةٍ مكتوبة. وهذا تنبيهٌ لتعليق،

(١) المَندوس: ماركة شهيرة من ماركات الأحذية.

(٢) الحُزون: جمع الحَزْن وهي ما غلُظ من الأرض.

ومثله لإعجابٍ من صديق. وتلك إشارةٌ إلى تغريدة، حارّة كتنْهيدة. وهذا بالواتس يتلهّى، وفي جوف اللّيل يتسلّى. تارةً يرسل طرفةً تُشجيك، وتارةً عظةً تُبكيك! وهكذا بتُّ كسَهران، يتقلّب على سَعْدان[1].

⏮ يقول أبقراط:

وعلى أحرّ من النّار، انتظرتُ بزوغ النّهار. وفورًا إلى (فتحي) البقّال، وقلت: ابْتعْ هذا الجوّال. وبلا دَوران ولا لَفّ، هو بألْفيْن ولك بألْف. ولكي لا يلعبَ الشيطانُ بخيالك، وتظنّه مسروقًا من هنا أو هنالك. أفيدُك بأنّي عليه ناقم، نقْمة العرَب على الحاكم. وفَوْتُه بالنّسبة لي غنيمة، وحيازتُه هزيمة.

وفوْرَ سماعه حواري، قال:حاشاك وكَلّا يا جاري. فأنت لديّ صادق ومُؤتمَن، ولا يَرِدُ برأسي أن تسرقَ أو تغشّ في الثّمن. ولكن مِن أين لي بالألف، والجُنيْه يعْدو إلى الخلف؟! وأرى أنْ تُمدّ يدَك ولا تخجل، وتقايضْه ببضاعةٍ ولا تَعْجَل. فعلى يمينِك بيْض وجُبن، وشاي وبُنّ. وعلى يسارك سكّر وحلْوى، وسمْن يجلبُ لك البلْوى. وأمامك خبزٌ وزيْت، قطْبا رحى البيْت. وهذا يكفي ويَزيد، ودعْني أواصلُ التّغريد. قلت: لا ضيْر، ففي كلٍّ خيْر.

(١) السَّعْدَان: نبات ذو شوك وهو من أنجع المراعي.

وأبْشِر بليلٍ سرمَد[1]، وبعيْنٍ من السَّهر تَرمَد. وهنيئًا لي راحتي، وهدوئي وسكينتي. ثمّ ذكّرتُه قول القائل:

«اعْلم بأنّ الهاتفَ المحمولا
كان لكلِّ آفةٍ سبيلا
فإثْمُه أكبر لو علمْت
مِن نفعِه فاحْذره إن فهمْت
يُقرّب الأقصى مِن الملاهي
ويُولج الإنسانَ في النّواهي
كم طالبٍ ألهاهُ هذا الهاتف
فصار محرومًا مِن المعارف
يظلّ مشغولًا بما لا يُغْنِي
يبيتُ لاهيًا بما لا يَعْنِي
مفرِّطًا يا ويْحَه في شُغله
مضيِّعًا لفَرْضِهِ ونفْله»

***

(١) سَرْمَد: دائمٌ لا ينقطع.

المقامةُ الثّالثة

وتُعرَف بالرِّئاسيّة

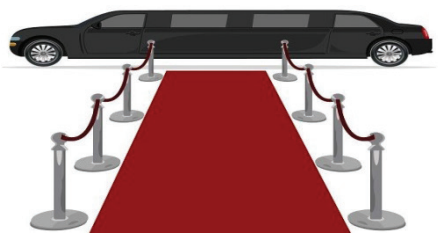

حدّثنا أبقراط بن قحطان، قال:

جاءنا الخَبر، أنّ الزّعيم حضَر. إلى مدينتا الصّغيرة، في زيارة قصيرة. وهو حدَثٌ كبيْضة الدِّيك[١]، ستنقلُه الجزيرةُ[٢] والنّيوزويك[٣]. قلت: أوَ يتكرّم ويتعطّف، وبمستشفانا يطوف ويتَلطّف؟ ليشهدَ على الطّبيعة، ما فيها مِن فَجيعة. ويرى رأْيَ العيْن، ما بها مِن شَيْن[٤]. فالأبوابُ نخَرها السُّوس، والنّوافذ قديمةٌ قِدم الهكسوس، وصديقة للجرْذان والنّاموس. كما أنّ القططَ في الممرّات تموء، وطعامُ المرضى لها فُيوء[٥]. والطّاولات على أحجارٍ تُقام، والكراسي على الحوائطِ تنام. والأسِرّة صدِئة جَرْباء، وفُرشها لا تعرف الصّابون والماء.

(١) بيضة الدِّيك: يُضرب بها المثل في الشيء الاستثنائي الذي لا يتكرّر.

(٢) الجزيرة: أشهر قناة فضائية عربيّة.

(٣) النيوزويك: مجلّة امريكية شهيرة.

(٤) شَيْن: قُبح وعيْب.

(٥) فُيوء: جمع فيء، وهو الغنيمة تُنال بلا قتال.

أمّا الأجهزة فمنذُ أيام ابن سينا، ومغبرّة كقَدم بها غرْغرينا. ومستودَع الدّواء خاوٍ على عروشه، وعلى المريضِ أنْ يدفع من جيوبه. والحمّامات صرْفُها يطفَح، والأرضُ تحت القمامة ترزح! ويْكأنّها بلاء، تُصّدر للنّاس الوباء. فتجودُ على السّليم بالمرَض، وعلى العليل بالحرَض[1]!

ومِن تدبير السّماء، استُجيب النّداء. إذْ وردَنا نبأٌ آمِر، أنّ غدًا يأتينا الزائر. وعلى الجميع الحضور، وتدبيرُ الأمور. قلت: وما هذا التّدبير المطلوب؟ قالوا: اصبرْ صبرَ يعقوب، وسترى كيفَ الأسلوب. فالبعيدُ ما فات، وكلّ قريبٍ آت. ونصفُ الإيمان شكْر، ونصفه الثاني صبْر.

وما هي إلّا سويْعات، حتّى هطلَت الهِبات. أسرّةٌ جديدة في حاويتها، وفُرُشٌ بديعةٌ في جرابها. مِن جمال ألوانها تلمَع، ولرؤياها تفرحُ العين وتهْمع[2]. كما أجهزةٌ أثيثة[3]، وأدويةٌ حديثة. وأشجار خضراء ناضرة، وورودٌ في حُلَلها زاهرة. علاوة على جيشٍ من الأُجَراء، فيهم من كلّ صنفٍ نبَهاء، يُصيِّرون الخنفساءَ سِتًّا للنّساء.

(١) الحرَض: الهلاك، ويُقال حرَض الشيخ أي مرض مرضًا شديدًا أذهب عقله حتى شارف على الموت.

(٢) تهمع: تسيل بالدموع.

(٣) أثيث: كثير عظيم.

منهم نجّارون وسبّاكون، ومهندسون وفنّيون. قلت: ما هذا أيّها الغُزاة، أخبروني يرحمكُم الله؟ قالوا: الزّعيمُ سيفتتِحُ المبْنى، ويَأذن باستقبالِ المرضى. ثمّ نُعيد ما جلبْنا، ونذهب إلى حيث كنّا. وهكذا دَواليك، كما يأمرُ الباشا والبيك. قلت: المبنى قديمٌ عتيد، فلِم تفتحوه مِن جديد؟! قالوا: هذه سياسةٌ لا يفهمها الدَّهْماء والدَّهْماوات، إذْ لا بدّ من إنجازات تُسطَّر في السّجلّات. كي يتشدّق بها الوزراءُ في الانتخابات، ويلوكُها الإعلاميّونَ كالببغاوات. فضربتُ كفًّا بكفّ، وقلت: ألهذا الحدّ نضبَ ذكائي وجفّ!

يقول أبقراط:

وفي صبيحةِ يوم الزّيارة، ألبسوني بِذلةً ونظّارة. ومن باب الأناقة، قزّعوا[1] رأسي في الحلاقة. ثمّ عطّروني بعطرٍ نفيس، جَلبوه خصِّيصًا من باريس، وقالوا: أنتَ المتحدّث أمامَ الرئيس. فأنتَ الفصيح الألْمعيّ، والطّبيب اللّوْذعيّ. تعرف (أخبار الحمقى) لابن الجوزي، و(المقدِّمة) لابن الجزَري. وتحفظُ (الأغاني) للأصْفهاني، وتستظْهر (المِلل) للشّهرستاني. قلت: يا لها من مُلِمّة، خلُّوا بيني وبين تلك المهمّة. قالوا: امتثِل للأمرِ يا عنيد، وإلّا نُفيتَ إلى الصّعيد. ولا

(١) قزَّعوا: أي حلقوا بعض شعر الرأس، وتركوا البعض متفرّقًا في مواضع أخرى، وهي حلقة تكثر في أوساط الشّباب، ونهى عنها النبي صلّى الله عليه وسلم.

تبخلْ على الرّئيس بالحُبّ، قتُلقَى في غَيابة الجُبّ. واعلمْ أنّ العِصيان، طريقُك إلى (طُومان)[1]. ثمّ دَسّوا في جيبي النصّ المكتوب، وقالوا ها هوَ الكلامُ المرغوب، واحْذر أن تحيدَ عن المطلوب.

ولّما أقْبل الزّعيمُ ببطانته، وَجِم الجمْعُ في حضْرته. وتكالبَتْ عليهم صُفْرة الوجَل، وحُمْرة الخجَل، وبياضُ شفير الأجَل! سيّما بعدما عايَنوا أمارات الغَلواء، ومظاهرَ الخُيلاء. وبدلًا من السّؤال عن اسمي وفصلي، وعِلمي وعملي. إذْ به يسألني: متى غرقَ أبوك، وكيف احترقَ أخوك؟ قلت: فُضّ فُوك، وعدمك ذَوُوك! أبي حيٌّ يُرزق، وروحُه بعد لم تُزهَق. وأخي مُعافى في الدّار، ولم تمسَسْه نار! فقال: ومَن مِن أولادِك مُعاق، ومَن منهم مُصاب بالمهاق؟ قلت: لم أتزوّج بَعْد، وعنه سأقلعُ يا وجْه السّعْد! قال: وكيف تهدّم سقفُ بيتك، وصعقَتِ الكهرباءُ أختَك؟ فقلت في نفسي: والله هذا يومٌ مشئوم، تنعقُ في سمائه البُوم. وسيعدّ عليّ المصائبَ عَدّا، حتّى يُفنِي العائلةَ أبًّا وجَدّا!

ولّما كان الهجوم، خيرَ وسيلة لدفْع الخصوم. قرّرتُ فتحَ الطّروس، والبوْح بما يعتمل في النّفوس. فقلت: سيّدي الزّعيم، والفيلسوف

(١) طومان: هو طومان باي، آخر سلاطين المماليك الذي شُنق وعُلّق على باب زويلة إبّان دخول العثمانيين مصر.

الحكيم. إنّ مَن حولك مُراؤون، وبك يسْتهزؤون. يميلونَ مع كلّ ريح، ويندرُ فيهم الصّريح! ويصْنعون غمْدًا مِن ذهَب، لسيوفٍ من خشَب! على شاكلةِ سامِريّ هارون، والبابليَّيْن ماروت وهاروت. وكلّ ما تراه تمثيليّة، وألعابًا مخابراتيّة. وهذا مسْلكٌ في الحُكم خطير، لا ندّ له ولا نظير! ثمّ خرجْتُ عن طوْري، وأبعدتُ في المدى غَوْري، وأسْلمتُ لله أمري. فاقتربتُ مِن كتفَيْه، وهمسْتُ في أذنيْه. طالما لديْكم الدُرّ، لم لا تَمنحوننا إلّا البُرّ؟! وطالما البلد غنيّة بالعَقيق، لم لا نجدُ حتّى الدّقيق، ونجوع ونعرَى كالرّقيق؟! ولم تَعدون بالمنّ والسّلوى، ثمّ لا نجدُ سوى عموم البلْوى؟! فتسْقوننا السّراب، وتُطعموننا التُّراب! ولماذا خططُكم في الإصلاح دهْريّة، وليستْ كبقيّة البلدان خمسيّة وعشريّة؟! وخلافًا لما توقَّعْته من أمارات العجَب، وزرْقة الغضَب. ما زادَ على أنِ ابتسم وهأْهأ، وبرأسه أوْمأ! وهذا ما شجّعَني وأغْراني، فقرعتُ سمعَه بمقولة الأصْفهاني[1]. «اتّقِ اللهَ في قوم أنتَ مالِكُ زمامِهم، يوم يُدعى كلّ أُناس بإمامِهم. ولا تغُرّنّكَ هذه الجنود المحْشورة، والسّيوف المشْهورة. والكتائبُ المُجنَّدة، والطيّباتُ المُعجَّلة. فإنّها حطامٌ مُستفاد، أوّله وبالٌ وآخره نفاد».

(١) العلّامة شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله المغربي الأصفهاني، في مقالاته المائة بين طيّات كتابه (أطباق الذّهب).

يقول ابنُ قحطان:

وما إن انتهَت التّظاهُرة، وغادرَت المواكبُ الفاخرة. حتّى جبَذني[1] أحدُ العَسَس جبذةً قويّة، انزلقَتْ من هوْلها فقراتي العنقيّة. وجرّني من القفا، جرّ الأُسود للمَها. وقال: أنسيتَ يا مواطن، أنّك حرفٌ ساكن. وأنّ سموّ السّحاب، لا يضرّه نبْحُ الكلاب. كما رسوخُ الجبال، لا يضرّه قرْع النّعال؟! ثمّ فاه فُوه، خذوه فغُلّوه، والبِذلةُ والنظّارة اسلبوه. ورأسَه بالموسَى[2] كالسّجناء احلقوه، ومستشفى المجانين صَلُّوه. ومِمّا أكمدَ الفؤاد، أنّ بعضَ الحضور الأوغاد. صاروا بالحاجب يبَصْبصون، وبوُسطى الأصابع يُشيرون، وللإليتيْن يهزّون! قلت: «ما لكُم كيف تحكُمون، أفلا تَذكّرون»[3]. أهكذا يُجازَى مُرافِق، لم يَجبُن ولم يُنافق؟! وآثَر أن يموت سَبُعا، على أنْ يعيش ضَبُعا. واستحبّ غمْس الخبز في الخلّ، على ازْدراد الشّهد بالذلّ!! إلى الله المُشتكَى، وبين يديْه الملتقَى، وعند الصباح يَحمَد القومُ السُّرَى. ما أراكُم والله إلّا أهل حيْف، يلمعُ على خواصركم السّيْف. تَقسِطون[4] فتَجورون، ولا تُقسِطون فتعْدِلون. فاستعِدّوا

(١) جبَذني: جذبني وشدّني.

(٢) المُوسَى: آلة فولاذيّة حادّة يُحلق بها.

(٣) سورة الصافات ١٥٤-١٥٥

(٤) يَقسط: بالفتح، مِن الثلاثي قسَط، فهو قاسط أي جائر. أمّا يُقسط: بالضمّ، فمن الرباعي أقسط، فهو مقسِط أي عادل.

بالجواب، يومَ لا تُجديكُم الألقاب، ولا الأحْساب والأنساب. ثمّ طفقْتُ أنشد:

«طغى الناسُ مِن بعد النّبيّ محمّد
فقد دُرِسَت بعد النّبيِّ الشرائعُ
وصارت بطونُ المُرْمِلاتِ[1] خميصةً
وأيتامُها منهم طريدٌ وجائعُ
وإنّ بطونَ المُكثِراتِ كأنّما
تُنقْنق في أجوافهنّ الضَّفادعُ
فما يَعرف العطشانَ مَن طال رِيُّه
وما يَعرف الشّبعانُ مَن هو جائعُ»[2]

***

(١) المُرملات: اللاتي لا أزواج لهنّ.

(٢) الأبيات لشاعر الحكمة والزهد أبي العتاهية (١٣٠-٢١١هـ).

المقامةُ الرّابعة

وتُعرَف بالعُنوسيّة

حدّثنا أبقراط بن قحطان، قال:

لمّا قاربتُ الأربعين، قرّرت إكمالَ نصْف الدّين. عبْر الزّواج من إحدى الحرائر، بنيّة العفاف والله أعلمُ بالسّرائر. سيّما بعْدَما قرأتُ للأصفهاني، الذي لم يؤلّف الأغاني، «رجُلٌ بلا بعْل، كرجلٍ بلا نعْل. والعزوبة مفتاحُ الزّنى، والنّكاحُ ملواحُ الغِنى. ومَن نكحَ فقد صفّد بعضَ شياطينه، ومَن تزوّج فقد حصّن نصفَ دينه». وفي سبيل ذلك تَحمَّمْت، ولأحسَنِ ثيابي يَمَّمْت. ثمّ ابتعْتُ (تُورتة)[1] بالحجْم الكبير، وقصدتُ بيتَ أبيها المدير.

(١) تورتة: كعكة محشوّة تصنع من البيض والطحين، وتحتوي على المكسّرات.

وعندما هَمَمتُ بالدّخول في الموضوع، قال لا تتعجّل الشّروع. دعْنا أوّلًا نأكل حَلْواك، لنسبُرَ غوْرك ومحْتَواك. فالجوابُ يُعرَف من عنوانه، وبالهديّة يُعرب المرءُ عن جَنانه. كما أنّ ذهابَ الكُلْفة، لا شكّ يجلبُ الأُلْفة. ثمّ فَكّ اللّفافةَ ونثَرَها، ونادى الزّوجةَ وصِغارَها. وهجموا عليها هجومَ الثّوْر، وبطَشوا بها على الفَوْر. وأنا أنظرُ في ألم وحسْرة، إذْ لم أَنلْ منها مقدارَ بَعْرة. وبعدها اسْتوى في الكرسي علَى إلْيتَيْه، وشمخَ برأْسه وكتفيْه، وباعَد بين فخذَيْه وساقَيْه. وقال: هاتِ ما عندك يا شاب، ولا بأسَ من التفصيل والإسْهاب. وما إن أخبرْتُه برغبتي، في أنْ تكون ابنتُه زوجتي. حتى أَمطرني بوابلٍ من الأسئلة، أوّلها عنِ العائلة. كمْ فيها مَن السّادة القُضاة، ورجال البوليس العُتاة. ومَن فيها مِن الوزراء، ورجال الأعْمال والسّفراء؟ قلت: أبي ساعٍ بالبريد، وأُمّي تجيدُ عملَ الثّريد. والإنسان يا سيّدي بأَصْغريْه، لا بأقربائه وأبَويْه! وجميلٌ منْك وحَسَن، أن تحفظَ قولَ أبي الحَسَن:

«كُـن ابـنَ مَـن شئتَ واكـتسِـب أدبـا
يُـغـنـيـك محـمـودُه عـن الـنَّـسَـب
فـلـيـس يُـغـنـي الحـسـيـبَ نـسْـبـتُـه
بـــلا لِـــسـانٍ لـــه ولا أدب

إنّ الفتى مَن يقولُ ها أنا ذا
ليسَ الفتى مَن يقول كان أبي»

⏮ يقول ابنُ قحطان:

ثمّ سأل عن العمل والرّاتب، وكمْ تَسَع سيارتي مِن راكِب؟ وعن شقّتي في أيّ الأدوار، وكم مساحتُها من الأمْتار؟ وكمْ يكون ارتفاعُ الجدار، وحذّر مِن أن تكونَ بالإيجار؟ وطلبَ دهانها باللّون الفُوشْيا، وتأثيثَها بمعرفة (إيكيا)[1]. وشدّد على أنْ يكون السّجّاد عجميًّا من إيران، والأجهزة الكهربائيّة أصليّة مِن اليابان. واشترط أنْ تكون مكيَّفة الهواء، على مدار الصّيف والشّتاء. وقدّم خطّ الإنترنت على الشّراب والطّعام، إذ تنام المحروسةُ ابنتُه وتصحو على إنستجرام!

وبخصوص الذّهب، تَشدّد في الطلَب. وأَلَمح إلى مئات الجرامات، من أَنْقي العِيارات[2]. بما يكفي لتطْويق الجِيد والمعْصميْن، والأصابع والسّاقيْن. وميّز الأذنَ بقرْط من ألْماس، تُحبَس له الأنْفاس. ثمّ عرّج على حفلٍ يُدعى فيه العُموم، وحدّد له فندقًا ذا خمْس نجوم. وفرقة غنائيّة تغرَفُ بالألوف، ووليمة يَحارُ في وصْفها الضَّيوف. وفستان زفاف يجرّ ذيلَه عشرات الوَصيفات، حتّى تبدو ابنتُه كديانا جميلة

(١) إيكيا: أشهر شركة عالمية متخصّصة في صناعة الأثاث.

(٢) العيارات: جمع عِيار وهو كلّ ما تُقدَّر به الأشياء من كيْل أو وزن.

الجَميلات. عدا عن فريق محترف للتّصوير، ومُصفِّفٍ يُحيل الشَّعر إلى حرير. وشهر عسل في تركيا، على الحدود مع جورجيا.

ولمّا استفسرَ عن نصيب أُمّها، بالمال أم بالذّهب أخُصّها؟ قلت: لا أرغب في الزّواج بأمّها، كما لا يجوزُ الجمع بين الأمّ وبِنتها! قال: يا ظريفُ إنّما هو اعترافٌ بفضْلها، إذ حملَت وأَرضعَت وربَّت مَن تودّ زواجها. قلت: ألَا تجعل لك من الكعكة نصيبا، ألم تتوعّك العروسُ يومًا وجلبتَ لها طبيبا. وأنفقتَ من جيبك للشّامبو والمعجون والثّياب، وللتعليم والدروس والألعاب؟! قال: هكذا لسانُ العدل يقول، ولكنِّي أُيسّر على أمثالك من الكهول. حتّى لا يفوتهم قطارُ الزّواج، ويَجنحوا عن الجادّة إلى الاعْوجاج. ثمّ إنّي أبحثُ عن معادن الرجال، وليست نيّتي خزائن المال. قلت: كلامٌ مُخدِّر يذْروه الهواء، وتُكذِّبه أفعالٌ أقرب إلى الهراء. قال: بل أستلْهم حِكَم العقلاء، كقول المعرّي أبي العلاء:

«مَهرُ الفتاةِ إذا غلا صوْنٌ لها مِن أنْ يَبُتَّ عشيرُها تطليقَها
هوِيَ الفراقَ وخاف مِن إغْرامِه فـــأدام في أسبابِه تعليقَهـا»

⏮ يقول أبقراط:

ولمّا رأيتُ أنّ الأمرَ ليس بنكاح، بل صفقةٌ ذاتُ أرباح. وأدركْتُ أنّ المفاخرةَ والمباهاة، جرّت على المهور مُغالاة. بالإضافة

إلى التّقليد، وما يصحبُه من جهلٍ أكيد.. جفّ منّي البلعوم، وبلغتِ الروحُ الحلقوم. وقلت وقد ضاق ذَرْعي: يَشهد اللهُ أنك ما يَسَّرْت، بل تَشدّدْتَ وعَسّرْت. فابتكرتَ شروطًا جائرة، ونسيتَ أنّ الدنيا دائرة. وأنّك إن تَشدّدْتَ مع النّاس في أولادهم، تَشدّدوا معك في بناتهم! وهكذا تعيش ابنتُك العانس، تندبُ حظّها البائس. أمَا علمتَ أنّ نجاح الزواج وبركتِه، في قلّة نفقتِه ومئونتِه. وأنّ خيْر الصَّداق أيْسره، وطوبى لمَن على الخلْق يَسّره؟! وألَم تسمعْ بالحديث الشّريف في قوله السّديد، «انظر ولوْ خاتمًا من حديد»؟! وبطقوسِ زواج الهندوس، الذين يدْفعون للعريس شوالًا من فلوس؟! وبابن المُسيِّب إمام الخافقيْن، الذي زوّج ابنتَه لفقيرٍ من طلّابه بدرهميْن؟! ثمّ ولّيتُه مغضَبًا ظهري، وأنشدتُه من محفوظِ شِعْري:

«أيَـا عَـمّاه حَمِّضْها وخَلِّلْها وضعْها فوق رفّ البيت زيتونا
فلو بيدَيّ رُبع هـذا المَهـر لكنتُ اليومَ قـــارونا»[1]

(١) الأبيات من قصيدة للشاعر هاني البطايحة بعنوان (أيا عمّاه).

المقامةُ الخامسة

وتُعرَف بالكِتابيّة

روَى أبقراط بن قحطان، قال:

لمّا رأيتُ الجهلَ ذائعا، في المرضى وذَويهم معا. قلتُ أؤلّف كتابًا أنصحهم، وعلى مائدة الوعْي أجمعهم. فالقلمُ أحدُ اللسانيْن، وثاني السِّلاحيْن. والجهلُ في الناس داء، والوعْي لهم شِفاء. وما لا يُدرَك كلُّه، لا يُترَك جُلُّه. سيّما بعدما رأيتهم يُطيّبون بالجَلّة[1] الحروقَ واللّهوب، وعُسْرَ الهضم بالغازيّ من المشروب. ويُضمِّدون الجرَح بالبنّ، مع ما في ذلك مِن غُبن. ولِداء السكّري يقتاتون الصبّار، على طريقةِ إخماد الماء للنّار! ثمّ يَحظُرون على المجدورِ[2] الاستحمام، وتلك لعَمري أوهام. ويُكرِهون المَحصوبَ[3] على ارتداء الأحمر، ويداوون اليَرَقانَ[4] بالكُركم[5] الأصفر! أمّا شرب الماء السّاخن فيذيبُ الدّهون، ويُحيل الدبَّ إلى عصفورٍ كما يزعمون!

---

(١) الجَلّة: البَعَر والرّوَث.

(٢) المجدور: المصاب بالجديري المائي.

(٣) المحصوب: المصاب بمرض الحصبة.

(٤) اليرَقان: مرض ناشئ عن اختلال في إفراز الصفراء أو المرارة، ويصحبه اصفرار الأنسجة والجلد والبول.

(٥) الكُركم: نبات عشبي من الفصيلة الزنجبيلية، موطنه الهند.

وفي سبيل ذلك تَبتَّلْت، والزّوجةَ والأولادَ اعتزلْت. فالكتاب خيرُ جليس، وأوْفى أنيس. والعُزلة مملكة الأفكار، وسُبْحة الأذكار. وبهما تبرأ أجسام، أَسقمَها الزّحام. وبهذا أعددتُ للأمر عدّتَه، وجمعتُ لكلّ فصلٍ مادّتَه. واجتزتُ ما تَوجَّب مِن مراحل، قبل الطّمع في بلوغ السّاحل. داعيًا الله أن يجعله مُجْديا، ولوجهِه الكريم صافيَا. فعند حلول المَنون، لا ينفع مالٌ ولا بَنون. والمرْء إذا انقضى أجلُه، انقطع عملُه. إلّا مِن عِلمٍ يُمْليه، وولدٍ صالحٍ يربِّيه، وصدقةٍ جاريةٍ من كسْب أيديه. مع الإشارة إلى أنّ الصدقةَ تجري لبضْع سنين، والولدَ يرحلُ ولوْ بعد حين، بينما العِلم يَبقى إلى يوم الدِّين. على أن يكون علمًا ينفع، في الميزان يَرفع، وعند الله يَشفع.

وقد وصلْتُ الليلَ بالنّهار، وغُصت بين المراجع كبحّار. وكَددْتُ الذّهن دونَ قهوة ولا تدْخين، كما يدّعي بعض المؤلِّفين. ولمْتُ لها ما وصلني من خَبَرٍ ورواية، وما حصّلتُه من خُبْرٍ[1] ودرايـة. مستبعدًا التخيّلات والأوْهـام، ممّا ينسبه البعضُ إلى التّجلّيات والإلهام! وسعيًا للإتقان، نقّحْتُه بإمعان. وطعَّمته بالخرائد، وزيّنتُه بالفرائد. ثمّ عرضتُه على لفيفٍ من المُختصَّة،

(١) الخُبْر: ما يتأتّى بطريق المشاهدة، بينما الخَبَر ما يتأتّى بطريق السّماع.

شهدوا له بالفَرادة والدقّة. فالنقدُ للكاتب مِهماز، سيّما النقد غير المُنحاز. وكمْ بين الدِّفاف من مكتوب، منحولٍ ومكذوب!

يقول ابنُ قحطان:

وكعادةِ الكُتّاب من المفكِّرينَ والأدبـاء، سطّرتُ لزوجتي الإهداء. اعترافًا منّي بفضلها، وحدبها وكريم صنْعها. فقلت: إلى خَلّ إدامي وسرّ سهادي، أُهديكِ كتابي وفؤادي.. ثمّ دفعتُ المؤلَّف إلى ناشر، في الكُتب هو الناهي الآمِر. فتَسلّمَه بطرفِ يدِه، وطرَحه على مِقعدِه. وقال: راجِعْني بعد ثلاثة قروء[1]، ولا تحدّثك نفسُك بسوء. فبعضُ الظّنون مُيُون[2]، والأيام قروض وديون. قلت: ألَا تتصفّحه وترى ما به، أم أنّه جُنُبٌ لنْ تقربه؟! قال: لا تهزِل يا ابن المقفّع، وعنّي اغرُب وافْرنقع[3].

وبعدما انقضَت العِدَّة، ومرَّت كأنّها شدّة. طرقتُ بابَ الناشِر، وقلت متى بالطِّباعة تُباشِر؟ قال: تدفع مِن الألوف زهاء العشرين، عدًّا ونقْدًا باليمين. أسلّمك النُّسَخ في التوّ، لتوزّعها بالبرّ والبحر والجوّ. أو أبيعها نيابةً عنك، ولك عشرة

(١) قروء: جمع قُرْء، والقُرْء هو الحيض. والمقصد ثلاثة شهور.

(٢) مُيُون: جمع مَيْن وهو الكذب.

(٣) افْرنقع: تنحَّى وابتعِد.

بالمائة كالبنْك. قلت: ألكَ اللّحم ولِيَ العظام، وأَيْم الحقّ إنّك لظَلّام! ألَا ترى كُتّاب الغرب يُكرَّمون، ومِن وراء كتبهم في الثّراء يتقلّبون؟ قال: يبدو أنّك غَرير[1]، وبالتّأليف غيرُ خبير. أتُقارِن الترابَ والنّحاس، بالتِّبر والألماس. تلك دولٌ لها في الثّقافة باع، والكُتب عندهم بالملايين تُباع. أمّا هنا فالكتابُ تأبّط شرّا، ويجرّ أقدامَه جرّا. هذا إنْ جاءه الدّوْر، ولم يَدهمْه الجوْر. ثمّ ما لكَ والمالُ يا كاتب، لنا الثّروة ولكَ المجد فلا تُعاتِب. ألَا تطمح أنْ تكون كالرّافعي والعقّاد، أو الجاحظ وابن عبّاد[2]!

يقول أبقراط:

ولمّا رأتْني زوجتي حزينا، إذْ أينَ لي من الألوف عشرينا؟! باعت خُفْيةً حُلِيَّها، وقالت هاكَ الألوف كلّها. فلَثمْتُ يديْها الاثنتيْن، ودعوتُ لها بسعادةِ الدّاريْن. وما إنْ نال النّاشر مُبتغاه، وفي خزينةٍ عن يمينه أخفاه. حتّى قال: غيِّب عنّي قدْرَ حوْل، أعِدك بعدها بالطّوْل[3]. قلت: هذا عهدٌ منْك وإليْك، أُقيم به الحجّة عليْك. ثمّ تلوتُ قولَ الحقّ: «الله ربُّنا وربُّكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حُجّة

(١) غَرير: عديم التجربة.

(٢) ابن عبّاد: هو الصاحب بن عباد (٩٤٥-٩٩٥م)، من كبار العلماء والأدباء والوزراء في العصر العباسي، وله مؤلّفات عدّة.

(٣) الطّوْل: الغِنى واليُسر.

بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير»[١].

ولمّا في الموعد حضرتُ بالتّمام، بصحبة حقيبةٍ تُفتح بالأرقام. لنُحصي البيْع، ونَقبض الرّيْع[٢]. ومِن ثمّ أُعيدُ للمرأة ذهَبَها، وأُوفِّي لها ديْنَها. ثمّ أحجزُ بالباقي تذكرةً إلى باريس، مكافأةً لنفسي بعد الغوصِ في كتبٍ كالمتاريس.. إذْ بالنّاشر منفرج الأسارير، وببَنانه إلى الرُّكن يشير. قائلًا: احملْ كتُبَكَ الرّاشدة، فبضاعتُها اليومَ كاسدة. ولا مجال إلّا للرّواية، العامرة بالجنْس والغواية. والمُبَهَّرة بالسّياسة والإثارة، والنّكْتة والاستنارة. وهي بتمامِها ألْفا، ما بعتُ منها نتْفا! وارْحلْ يا شكسبير، بلا عيرٍ ولا نفير. ثمّ أهْداني أوقيةَ بُنٍّ مطحون، وكتابَ (الفلاكة والمفلوكون)[٣]. ونصحني بأنْ لا أصدّق مَن يقول:

«لمّـا عدمْتُ مؤنسًا وجليسا نـادمْـتُ بقراطًا وجالينوسا
وجعلتُ كتبَهما شفاءَ تفرُّدي وهما الشّفاء لكلِّ جرحٍ يُوسا
ووجـدتُ عِلمَهما إذا حصَّلتُه يُذكي ويُحيي للجسومِ نفوسا»[٤]

وهكذا صرتُ أخْيب مِن حُنيْن، إذ عُدتُ حتّى بلا خُفَّيْن. فما

(١) سورة الشّورى آية ١٥

(٢) الرّيْع: الإيراد، الكسب، الدخل، الناتج.

(٣) القلاكة والمفلوكون: كتاب لمؤلِّفه أحمد بن علي الدَّلجي (٧٧٠-٨٣٨م)، ذكر فيه ما يزيد عن مائة وأربعين عالمًا حاق بهم الفقر وكابدوه.

(٤) الأبيات من بحر الكامل، للطبيب والشاعر الأندلسي (سعيد بن عبد ربّه).

أصنع بكُتُبٍ غفيرة، تَسَعها جزيرة؟! وصارت في البيت كالكابوس، يطبق على الأنفاس ويَدوس. وبعد يومَيْن، غابت الكتبُ عن العيْن، فسألتُ الزّوجة: أيْن؟ قالت بعتُها للبقّال والطُّرْشَجي، وبالأكْيال للطَّعْمجي. قلت: وأين الثّمنُ يا وجْه الخيْر؟، قالت: عِلْكة وقطعة جُبْنٍ لا غيْر. قلت: يا ضيْعة الحليّ والمَصاغ، قالت: أنتَ تحلم يا خشنَ الأصْداغ. تكتب لي شطْر البيت جهةَ الجنوب، وتُوثّقه على يد محام موهوب، وعن فكرة التأليف تُقلع وتتوب. بل دعْها تتبخّر من رأسِك كالبخار، وتُطوَى طيّ الليلِ للنّهار، والموْتِ للأعمار. فهذا أسْلم لدنْياي ودنْياك، وأنْجَى لأُولاي وأُولاك.. ألم تسمعْ قولَ صديقك خليل مطران:

«ارْبـأ بنفسِك أن تكونَ نجيبَا ... وازْجُرْ خليلَك أن يكونَ أديبَا
فلقد أَرى موتَ الأديبِ حياتَه ... والعيشَ موتًا يلتقيهِ ضُروبا
وأَرى جوائزَ فضلِه وعلومِه ... إعسارَه والـدّاءَ والتّعذيبَا»

المقامةُ السّادسة

وتُعرَف بالمَسجِديّة

أخبرنا أبقراط بن قحطان، قال:

ذاتَ جُمعة طيِّبةٍ مبارَكَة، نُداوي بها أوصالَنا المُفكَّكَة. فنبْرأ من هفْوة، وننهض من كبْوة. ونَخرج من ذنوبنا، كيوم ولدتْنا أمّهاتنا. تهيّأتُ لصلاةٍ، هي كَريٍّ في فَلاة، ومصباحٍ في مِشْكاة. وكانَ مِن حَظِّي، أن صَلّى في طِيِّي[1]. مزكومٌ أنفه بالماء سَيّالة، وعينه بالدّمع هَمّالة. وما إن انفتَل من التّسليم، حتّى عطسَ وهو مُليم! فشطَف برذاذه وجْهي، وأَتْرع بفيروسه أَنْفي! ثمّ ببلعومه أَحّ، وبصدره كَحّ. فتطايرَتِ النِّعال، مِن هوْل السّعال..

(١) الطِّيّ: هو الناحية والجهة، أي صلّى بجانبي.

وبعد أن اشتكى لي الدّاء، وحانَ وقتُ الدّواء. أَخرج من عُبّه اليراعةَ والقرطاس، وسمَّى بالذي خلقَ القلم قبْلَ النّاس. ثمّ أوْصاني بالتّقوى في السرّاء، وكذا في الضرّاء. وحذّرني مِن أن أبيعه سمكًا في ماء، أو طيرًا في هواء. وقال: كُنْ بديع البَيان، ولا تكنْ عجِل البَنان. فمَن كانت أنامله سريعةً كريح، بدا مكتوبُه قبيحًا كقبيح. فقلتُ: جفاك الحقُّ يا ذا الوجْه الجَعْد[1]، وما هكذا تُورَد الإبلُ يا سعْد! إذْ كيف للعلاج مِن وصْف، قبل خضوع البدنِ للكشْف! فعقّد حاجبيْه، وذمّ شفتيْه، ولوّح بكفّيْه. ثمّ انطَلق مِن قمْقمه جانّ، وتَفجّر لغضبه بركان! فقلت: كم مِن أعاجيب في الكوالِيس، وما أسْرعَ انقلابَ الخسيس، مِن قِدِّيسٍ إلى إبليس!

وهكذا انتَحيْتُ من المسجد زاوية، بعيدًا عن الأقدام الغادية. وشرعتُ دفّتَي المصحَف، لأقرأَ وِرْدًا لا يُجحَف. وما إن استعذْتُ وبسملْت، وإلى الله ابتهلْت. حتّى حَضرني كهْل، حضورًا غيرِ سهْل. إذْ كان دميمًا كالخنافس، وأسْودَ كالحَنادس[2]. فقال: لي سؤالٌ طويل، قلت: تفضّل يا ثَقيل. فظنّها مدْحًا وشكَر، قلت: ليت سمْعَه وقَر أو نكَر. ثمّ حسَر أسمالَه، وأبان عن أبيض سروالِه. قبل أن يحلّ تكّتَه[3]، ويكشف عورتَه! قائلًا: جُسّ هذه الخصيةَ وترفّق، وفكّر جيّدًا وتحقّق. قلت: ما دهاك يا فلان؟ أتظنّنا بمارستان؟! مثلك كراكب قطار، يهزّ رجليْه كمَن على ظهر حمار. قال: لا تُكبِّر الصّغيرة، إنّما هي

(١) الوجه الجعْد: هو الوجه المستدير القليل اللحم.

(٢) الحَنادِس: آخر ثلاثة أيام من الشهر القمَري، ويُقال أسود حِندِس أي أسود حالك.

(٣) التِّكّة: حزام من نسيج أو مطاط يُربط به أعلى السّروال.

استشارةٌ يسيرة، تَنفعك يوم الحِيرة. وحسَنةٌ في الأرض، تُنقذك يومَ العَرْض. حين تُنشر الدّواوين، وتُنصَب الموازين. قلتُ: بلْ خطيئة كبيرة، تكشف عنْ عمى البصيرة. أتخلع على الملأ (اللّباس)، وتكشف عورتَك أمامَ النّاس، ثمّ تَعظني بربّ النّاس؟! ما أراكَ إلّا خصْب اللّسان، جَدْب الجَنان. وكمَن يدْعو إلى الجنّة بالأقوال، ويصدّ عنها بالفِعال!

وبينما حسبْتُه يتعقّل، وعنّي ينصرف ويتنقّل. إذْ به يُعيد الجولة، وينزع ما تحتَ البِذلة. تلك التي نسمِّيها فانلّة، وفي رواية فالنّة. ليَبين عن جلدٍ منْكوب، كأنّما لسَعه يَعسوب. وقال: أمعِن هنا نظرَك، وأجِلْ ها هنا بصرَك. قلتُ: قوْسٌ قَرَس [1]، وحَدَبةٌ كحَدْوة فرَس. قال: ليس هذا ما أعْنيه، بل الجِلد وما فيه. قلت: لعلّك تقصدُ البُقَع، إذنْ اسمع يا لُكَع[2]. هي عدوى فِطريّة، من أشْهر الأمراض الجلديّة. لا أليمة ولا مزعِجة، ولكنّها بالفعل مُحرِجة. ترتبطُ بالطّقس الحارّ، الرّطب الضارّ. وعلاجها قد يمتدّ ويَطول، قبل أنْ تختفي وتزول. منه أدويةٌ موضعيّة، ومنه عقارات فمَويّة. فقال: اكتبْه وبَقْرِطْه[3]، وحسِّن خطّك ولا تقَرمِطْه[4]. واعْتنِ

(١) القَرَس: الجامد.

(٢) لُكَع: أحمق لئيم.

(٣) بَقْرِطْه: أي وقِّعْه باسم أبقراط.

(٤) القرْمطة: الكتابة بخطّ دقيق مع المقاربة بين السطور، وهي مذمومة.

بتهذيبه، وتَأنَّق في تذْهيبه. فقد جُنّ الصّيدلي، من خطّكم اللَّوْلبي. قلت: عليكَ بطبيب الجلديّة المختصّ، ليهزم تلك (التِّينيا) ويقتصّ. فقال: أراك تهربُ وتدور، وتراوغني كفأرٍ وسنّور. قلت: بل نيّتك نيّة سُوء، وفارِقني فإنّي لاحْتمالك أَنُوء. فكم مِن قلبٍ نَغِل[1]، وصدرٍ دَغِل[2]! وكم مِن أجسامٍ خفيفة كالجوّال، وأرواحُها ثقيلة كالجبال! أو كلقمةٍ استعْصت على القضْم، وأنْهكَت جهازَي المضْغ والهضْم. ثمّ دار بخلدي قول الشاعر:

«وثقيلٌ ما برحْنا نتمنّى البُعد عنه غاب عنَّا ففرحنا جاءنا أثقل منه»[3]

⏮ يقول ابنُ قحطان:

وبعدَ أن غادرتُ منْسَكي، متجِّهًا إلى مسْكَني. إذْ بأحدهم خلفي انطلَق، وبأعلى صوتٍ لديْه زعَق. حتى بدوْتُ كلصٍّ سرَق، أو عبدٍ فرّ وأبَق. يقول: انتظِر يا أبقراط، أراكَ أفرغ من حَجّام ساباط[4]، فلِمَ

---

(١) نَغِل: فاسد.

(٢) دَغِل: مَعيب، مُريب.

(٣) الشاعر البهاء زهير (١١١٨٦-١٢٥٨م)، عاصر بني أيوب، واشتهر شعره بالبحور اللطيفة والأوزان الموفورة الحظ من الموسيقى والتأثير.

(٤) حجّام ساباط: هو حجّام سكن بلدة ساباط، وكان يمرّ عليه الأسبوع والأسبوعان ولا يدنو منه أحد، حتى أنّه كان يحجم أمّه كلما خرجت، ليرى الناس أنّه ليس بفارغ، ومازال ذلك دأبه، إلى أن نزف دمُ أمّه فماتت، وهكذا صار يُضرب به المثل في الفراغ، فيُقال أفرغ من حجّام ساباط.

كالنّعامة تهرولُ في خفّة ونَشاط؟ في العجلةِ النّدامة، وفي التّأنّي السّلامة!
قلت: يا مقلّب القلوب بقدْرتك، ثبِّت قلوبَنا على طاعتك. ما بك يا فاقدَ الثَّبات، صوتُك الأجشّ أيقظَ الأموات؟! قال: خُذْ هذا الكيس من الدّواء، فيه سبعون صنفًا أو زُهاء. وقُل كَم يكْفيني في الصّباح والمساء، وقبل أو بعد الغِذاء؟ وما فوائدُها الطبيّة، وآثارُها الجانبيّة؟ وفي أيّ دولةٍ كان الصُّنع، وما قوّتها في النّجْع [1]؟ ثمّ أخبرني عن اسْم الصّانع وسيماه، وكيف هي بصمةُ يداه؟ وعن سلامة استخدامها في الحوامل والمرضعات، وكافّة الأحياء والأموات؟ قلت: أمَا علَّمك طبيبُك، أمْ تريدني أن أزيدك؟ قال علَّمَني وأكّد، وأريدُ أن أتأكّد. فأغلبُهم جهّال، همّهم المال. قلت: بل أنت الأجهلُ من دابّة، وأطمّ من طامّة. منذُ متى يُعالَج الأموات، ويتعاطون الأدويةَ والعقارات؟! ثمّ إنّي أراكَ بشكِّك رهينَ الاعتلال، ولا أظنّك تصلُ إلى الإبلال[2]. دَعْ عنكَ هذا الارْتياب، وإيّاكَ والاغْتياب. واعْلم أنّ مَن سبّ النّاس في حضْرتك، غدًا يَسبّك في غيْبتِك. والعاقلَ لِعيوب الناس يَطوي، وعنها يَكفّ ولا يَروِي. وتَذكّر أنّ فقيرَ الأدب، مريضٌ للأبد. ومَن

(١) النّجْع: الفائدة، ويُقال دواء ناجع أي نافع مفيد.
(٢) الإبلال: الشفاء.

للخَلْق فضَح، دارَ عليه الحَدَثان[1] فانفضَح. ثمّ تلوتُ[2] على مسمعِه، قولَ الشاعر النَّبِه:

«إنّ المعلِّمَ والطبيبَ كلاهُما لا يَنصَحان إذا هُما لم يُكرَما
فاصبرْ لدائكَ إنْ أهنتَ طبيبهُ واصْبر لجهلكَ إن جفوْتَ معلِّما»

❊ ❊ ❊

(١) الحَدَثان: الليل والنّهار.

(٢)

المقامةُ السّابعة

وتُعرَف بالحجازيّة

روى أبقراط بن قحطان، قال:

ذاتَ مَرّة، وعلى حين غِرّة. رجاني صاحبُ حملة، أنْ أصحبَهم في رحلة. نؤدّي فرض الحجّ، بما فيه مِن عَجّ[1] وثَجّ[2]. ويتكفّل بالمصاريف، شاملة كلّ التّكاليف! قلت: اصْدُقْني القولَ ولا تُرائي، فقد مضى زمنُ حاتم الطّائي! قال: مُجبَرٌ أخاك لا بطَل، ولوْلا الجبْر ما الجُود هطَل. سترافقنا يا أبقراط كطبيب، يرشقُ الدّاءَ فيُصيب، ويداوي العليلَ فيَطيب. وذلك حسبَ أوامر سَنِيّة[3]، في خطوةٍ استثنائيّة، أقْدمتْ عليها الجهات الإداريّة. فالحجّاج وفدُ الله، وخدمتهم شرفٌ ما أسْماه. فأخْلِص النيّة، وعلينا المَطيّة. وجهِّز الحقائب، وعلينا الرّكائب.

(١) العجّ: رفع الصوت بالتلبية، وهو مُستحَبّ للرّجال دون النّساء.

(٢) الثجّ: إسالة دماء الهدايا.

(٣) سَنِيَّة: عالية رفيعة القدْر، أي أوامر علْيا من السلطات الحاكمة.

فقلت: على نيّاتكم تُرزَقون، وللخيْر تُساقون وتُرغَمون. وكَم مِن عطايا للزّمان، تأتينا بلا حسْبان! وكمْ من أمنياتٍ نسعى مِن أجْلها، وخيرُها في غيرها! ثمّ حمدتُ الله وشكرْتُه، ولتمام النّعمة سألْتُه. فسبحانَ مَن عدَل فعلّق الأرزاقَ بالأسباب، وجادَ فرزق مِن غير أسباب.

وما إنْ وصلْنا المدينة، وتَنسَّمْنا السَّكينة. حتى هفَتْ نفوسُنا، لمسجد رسولنا. حيثُ الرّكوع في مصلّاه، أفضلُ من ألْفٍ فيما سواه. فدلفْنا إلى روضةٍ هي الجنّة، نحمدُ الله على المِنّة. ولكنّا أَلفيْنا الناس تَزاحموا، وبالمناكب تَدافعوا. فما استطعْنا الرّكوع ولا السّجود، فما بالك بالجلوس والقُعود. ثمّ سلّمْنا على أكرم رسول، وصاحبيْه العُدول. أبي بكر وعمَر، أطْيب ثمرٍ وأضْوءَ قمَر. وساءني أنْ تَشاغل النّاس بالتّصوير، وكأنه ركنٌ[1] كالحلْق والتّقصير! ثمّ طفقوا وهُم يجهلون، لقبر المصطفى يلثمون، وبواجهته يتمسّحون! ولوْلا أنْ زَجَرهم الأَمْن، لزادوا وتمادوا في الأَفْن[2].

(١) أركان الحجّ: بجوار الأركان الأربعة المعروفة وهي: الإحرام، والوقوف بعرفة، وطواف الإفاضة، والسعي.. يُعدّ الحلق أو التقصير ركنًا خامسًا عند الشافعيّة.

(٢) الأَفْن: الحُمق والخُرق وضعف الرأي.

يقول ابنُ قحطان:

وكعادة الحُجّاج، برزوا مِن كلّ الفِجاج. ينحدرون كالسيْل، ويركضون كالخيْل. مِن مِنى كان النّفِير، وإلى عرفاتِ الله المَسِير. وهناك وقفْنا، والرّحمة بفضل الله نلْنا. ثمّ مررْنا بمزدلفة في المساء، وجمعْنا المغرب مع العِشاء. وعدْنا إلى مِنى، وتَحقَّق المُنى. فرَجْمنا إبليس، العدوّ الخسيس. وعجِبْنا إذْ رجمه ساذجٌ بنعْله، ورماه بتفْله[1]. ثمّ هوى عليه بالعصا، قائلًا: العصا لَمن عصى، ووسْوس لَمن عصى! وبعد ذلك نحرْنا، والرأس حلقْنا، وبالكعبة المُشرّفَة طفْنا.

ولمّا بلغ منّي التعبُ أوْفرَه، وبتُّ ما أشعثَه وأغْبرَه. قلت: أذهبُ لأستحِمّ، وبالبيت أستجِمّ. بَيْد أنّ رأسي كانت تدور، وتَشابهَت عليّ الدُّور. فدخلتُ شقّة للنّسوان، بابها مُشرَعٌ كالدكّان. ولمّا شككتُ في المكان، وتَلفّتُّ كالحيران. أبصرتُ حمّامًا عن يساري، به عجوز لا تواري. وسوْأتها بادية، وما أدراكَ ما هِيَهْ. فصرَخَتْ لمّا رأتْني، والجِنّ حسبتْني. ثمّ انتفضَت مذعورةً تجري، إلى أين لا تدْري!. وإذ بالأبواب تُدَكّ دَكًّا دَكًّا، وتتقاطر النّساء صفًّا صفّا.

(١) التَّفل: البصاق.

منهم مَن تولْول وتستغيث، ومنهم من تَعلّقَت بإزاري الرّثيث[1]. ومنهم مَن بالسبّاب المَرذول ترشق، وأخرى بالبُزاق تبصق. فرُغْت منهم بأُعجوبة، تُشيّعني نعالُهم المَكعوبة. ولو تمكّنوا منّي لذبحوني، ومِن بطني بَقَروني، ولِكبِدي بأسنانهم مضغوني. تمامًا كما فعلَت آكلةُ الأكباد[2]، بسيّد الشّهداء الأجواد.

وإثرَ ساعات نوم طوال، نشَطتُ بعدَها مِن عِقال. وبينما أُعِدّ الحصوات، وأتهيّأ لرَمْي الجمرات. إذ بحاجٍّ على بابي وَقوف، وقال: لي عندك معروف. فقلت: أنا عبدُك المأمور، إنْ كان طلبُك في المقدور. قال: أُعطيك الحصوات، ترمي عنّي الجمرات. قلت: الإنابةُ جائزة للضّعفاء، من الرّجال والأطفال والنّساء. وها أنتَ سليمٌ كالحصان، تركض من مكان إلى مكان! ثمّ إنّ الحجّ جهاد، وأجرُك مع المشقّة يزداد.

وبدلًا مِن أنْ ينصاع لِما أقول، قال: يبدو أنّك بي جهول، فأنا بين الحجيج أشهرُ من أبي الهول. قلت: لَم ندرسْ سيادتكم في الكليّة، ففُضّ الأختامَ عنْ أسرارك الحربيّة! قال: هنا لك شيخٌ

(١) الرثيث: الرثّ، البالي، القبيح الهيئة.

(٢) آكلة الأكباد: هند بنت عتبة، التي لاكت كبد سيد الشهداء حمزة بعد استشهاده في غزوة أحد على يد وحشي بن حرب.

ميسور، بمرضه العُضال معذور. أنابني للحجّ والعُمرة، بألوفٍ في العَدّ كَثْرة. وهكذا أنا دومًا ضيف على الرّحمان، أحجّ عن فلان وعَلّان. ويستوي في ذلك أهلُ السنّة في السودان، أو الشّيعة في إيران، أو حتّى الدروز في لبنان. وأسعاري بعيدةٌ عن العلوّ، وحجّي كما ترى لا تشدُّد فيه ولا غلوّ. قلت: أنت إذنْ كنائحة الثّواكل[1]، وعن العملِ عاطل. قال: بل أحرس يا هذا مدرسة، ولدواعي الغطرسة.. بهنديٍّ أستعين، يحرسُ عنّي العرين، نظيرَ مائة وعشرين. وهو كما ترى مبلغٌ زهيد، يعادل أجرَ يومٍ لي ولا يزيد. قلت: إنّك والله لغريب، وُلدتَ لتَنوب وتُنيب. وتخلطُ العبادة بالتّجارة، والاستقامة بالشَّطارة.

يقول أبقراط:

وبعْدَما منّ الله عليّ بالتوفيق، فأنهيتُ رمْي جِمار التّشريق، وودّعتُ بيت الله العتيق. سألتُه سبحانه حجًّا مبرورا، وذنبًا مغْفورا، وسعيًا مشكورا. ثمّ طفتُ بالأسواق، مطمح الأنْظار ومحطّ الأرزاق. أرومُ شراءَ بعض الهدايا، لأحبّةٍ يسكنون مِن

(١) الثواكل: جمع ثاكل، والثُّكل فقد الحبيب، وأكثر ما يُستعمل في فقد الرجل لولده والمرأة لزوجها.

القلب الحَنايا[1]. فمررتُ ببائعِ ساعات، تبرقُ في يديه كالثُريّات. وقلت: بكَمْ يا أخا الإسلام؟ قال: مائتيْن بالتّمام. ولمّا عنه تَحوّلْت، وإلى طريقي انقلبْت. صار يتبعني كالظِلّ، ويغازلني بسعرٍ يَقِلّ. حتّى أضجرَني كحصاةٍ في الكلْيتيْن، وقذاةٍ في العينيْن. إلى أن قال: خذْ واحدةً بعشرين، أو اثنتيْن بثلاثين. وعجِّل يا حاجّ، ودَع عنك اللّجاج. فنظرتُ إليه مليّا، وتنحَّيت عنه قَصيّا. بعدما هرشتُ رأسي الصلعاء، وقلت: مِن الجشع يبدأ الغلاء.

وبينما أهُمّ من السّوق بالانْصراف، خالي الوفاض كالأضْياف. لمحْتُ أحدَهم في زاوية، بيديْه عباءة للحريم ثاوية. فقلت: يبدو أنّ بضاعته ناضجة، وتجارتَه رائجة. حتّى باع منها الكثير، ولم يبق إلّا هذا اليسير. فسألتُه: «هاو ماتش»؟ وردّ: «نُوت ماتش». وبعدما استعرضتُ عضلاتي في الإنْجليزية، وأثْبتُّ جدارة وعبقريّة. حتّى أنه لم يفقهْ حاجتي، ولم يدْرِ كُنْه رطانتي.. قلت: بكَمْ هذه يا خليل؟ قال: بعشرةٍ قابلة للتّنزيل. قلتُ في نفسي: مستحيل، حريرُها من النّوع الأصيل! وصنْعتها عجَبٌ عُجاب، ولِوَشْيها[2] يَسيلُ اللّعاب! ولمّا باليد لمسْتُها، وباللّسان لحسْتُها، وبالأنف شممْتُها. ووجدتُها

(١) الحنايا: الأعماق.

(٢) الوَشْي: النقش والزخرفة.

بالمسْك مُعطَّرة، وبالعود مُبخّرة. شككْتُ أنها مسلوبة، أو لقيطةٌ مغصوبة. ودرأْتُ الشُّبهات من فوري، ورفضتُ عَرضه المُغري. فأمامَ الشّبهات لا تردّد ولا كسل، إذْ كم مَن سمّ دُسَّ في عسَل. ثمّ تحسّرتُ على فِعلٍ حرام، قد يُرتكَب في البلدِ الحرام!وتذكّرتُ قولَ الشّاعر:

«ولمّـا قضينا للإله مناسكًا ... ذكرْناه والمطلوبَ منه سألْناه
فمِن طالبٍ حظًّا بدنيا فما له ... خَـلاقٌ بـأُخـراه إذا اللهَ لاقاه
ومِن طالبٍ حسَنًا بدنيا لِدينه ... وحسَنًا بأُخراه وذاك يُوفّاه
وآخَـر لا يَبغِي مِن الله حاجةً ... سوى نظرة في وجهه يوم عُقْباه»

***

المقامةُ الثّامنة

وتُعرَف بالسِّياحيّة

روى أبقراط بن قحطان، قال:

في دنيا ذاتِ أحوال، حطّت بي الرِّحال. بمدينةٍ ساحليّة، عِيشتها هَنيّة. إذْ يجني أهلُها الأرباح، من وراء سيّاح. يَأتونها من كلّ الفِجاج، أفواجًا تلْو أفواج. حتى غصّت شواطئُها المديدة، بقُرًى سياحيّة عديدة. وذات مساءٍ ساهِد، هُجِرَت فيه الوسائد. وبات فيه القَوْم، أسْهر مِن نَجْم! استُدعيتُ إلى قريةٍ سياحيّة، لمناظرة سائحةٍ أجنبيّة. فأَقلّتْني سيّارةٌ ولا أروع، خرجَت لتوّها من المصنع. ممّا يركبها السفراء، ويمتطيها الوزراء. ولِسائقها بِذلة تلمع، كأنّه لِعُرسٍ أَزمع.

وما إنْ وصلتُ القرية، في أقلّ مِن ثانية. حتى اقتادني المدير، إلى جناحٍ وثير. به سائحة روسيّة، في كامل قواها الصحيّة. كانت لتوّها تغوص، في الماء كالدُّعموص[1]. وما بها سوى زكام، ممّا يهمله الأنام! فأسهبْتُ في شرح الأسباب، وما تركتُ لها سُؤْلًا دون جواب. فغمرتْني بالتقدير، حتّى استطالَ عنقُ المدير. وبدا كأصلعٍ سفيه، يتباهى بشَعر أخيه!

وبعدما قبضتُ من الدّولار عشرة، وهممتُ بالرّحيل دون عثْرة. قال المدير: مِن فضلك لا تنزَح، وللقرية لا تبرَح. دعْنا عليها نُعرِّج، ولجَنابك نُفرِّج. وترى على الطّبيعة، خدماتنا البديعة. فبدأْنا بصالةٍ للطعام، مُزدانةٍ بالرخام. ومترامية الأرجاء، فسيحة الأنحاء. يقوم عليها طُهاة، في الطبْخ كالحُواة. ويتوسّطها طاولة، بالطعام آهِلة. منه العربيّ والعجميّ، والنباتيّ والحيوانيّ. فهنا طيورٌ وأسماك، تُسيل لعابَ الأحْناك. وهناك لحمٌ مَشْويّ، وآخَر في الزّبد مقْليّ. وركنٌ للمشهِّيات والمُقبِّلات، يقطنه الحِساء والسَّلَطات. ورائحتُه تغزو الأنوف، وتنادِي على الكفوف. أمّا الفواكه فمُقطَّعة، مثلثَّة ومربَّعة. كألوان الطّيف تزهو، وسبحان مَن لا ينام ولا يسهو. علاوة على النّشويّات، والعصائر والحَلْويّات. منها ما أعْلمه وأخبِره، وأكثرها

(١) الدُّعموص: دويْبة تغوص في الماء.

أجهله وأُنكره! قلت: ومتى يأتي الغُزاة، لينال كلٌّ مُبتغاه؟ قال: تَوًّا احتشدوا كطلّابٍ في محاضرة، وهجموا كجنودٍ يفرّقون مظاهرة. ثمّ ملئوا البطون، وجحظَت منهم العيون، وانصرفوا كالثّمالى يترنّحون. قلت: وما مصير تلك البقيّة، أتوزّعونها كالأضحية. ثلْث للفقراء، ومثْله للأصدقاء؟ قال: بل تذهبُ إلى القمامة، بلا عتابٍ ولا مَلامة. قلت: فناولني كيسًا أُعبّئه، وتحتَ ثيابي أُخبّئه. فقد غلبَتْني الأشْواق، وتَحلَّبَت[١] الأشْـداق[٢]. قال: هذا يا أبقراط ممنوع، والزَّعَل[٣] مرفوع[٤]. ولكن أُسِّر لك بالمكان، وأوْلِم هناك بالمجّان. قلت: أراك داهيةً كالأرْطبون[٥]، وبخيلًا كسهل بنِ هارون[٦].

يقول ابنُ قحطان:

ثمّ مررْنا بالمسْبَح، قال: اجلسْ هنا تَربَح. وعلى هذا الكرسي استجِمّ، وليتَك تخلع سروالَك وتستحمّ. ثمّ اطلب مِن الشّراب ما

(١) تحلّبَت: سالت، يُقال تَحلَّب فمُه أي سال ريقُه.

(٢) الأشداق: جمع شِدْق وهو جانب الفم مما تحت الخدّ.

(٣) الزَّعل: الاستياء والغضب.

(٤) مرفوع: مكفوف، ويُقال رفع يده عن الشيء أي كفّ يده عنه.

(٥) الأرطبون: قائد روميّ اتُّصف بالدهاء والعبقريّة، ومنه جاءت تسمية الخليفة عمر بن الخطاب لسيدنا عمرو بن العاص بأرطبون العرب نظرًا لشدّة دهائه وعبقريّته.

(٦) سهل بن هارون: أديب وفيلسوف ومترجم، عاش في العصر العباسي الأول، وتوفي ٨٣٠ م، أشرف على مكتبة المأمون وبيت الحكمة، وله كتاب بعنوان (رسالة البخل) ينتقد فيها الكرم العربي، وهو ممن يضرب بهم المثل في البخل.

تريد، فأنت هنا ضيفٌ فريد. ولمّا ناولَني قائمة، للأشْربة حاكمة. لم أجدِ البرتقال ولا اللّيمون، ولا الشّاي ولا الينْسون. بل الفودكا الرّوسيّة، والجِعَة الصينيّة. وهكذا كلّها خمور، تنادي حيّ على الفجور! والفجيعة أنّ النادلات، ترتدينَ مايوهات، لا تستر حتّى السَّوْءات! فدعوتُ الله بكلّ ما له من أسماء، ألّا يؤاخذنا بما فعلَ السّفهاء. وقلت: أهذه ردّة لا أبا بكر لها، أم فوضى لا درّة عمر لها؟! دعْنا نَفِرّ يا أخا العرَب، فرارَ الأصحّاء مِن الجرَب. فقد غمرَ السّيلُ الجَبلَيْن، وجاوز الحِزامُ الطِّبْيَيْن[1]. وشتّان بين مَن للمِسك يَنفح، ومَن بالنّار يلفح. وبين لاهثٍ خلف دنيا فانية، وآخَر ساعٍ إلى جنّة ذات قطوفٍ دانية! قال: يبدو أنّك قرويّ، عاشق للشّاي (الكُشريّ)[2]، فطُف بنا على المقهى الشرقيّ. قلت: قرويّ وكُلِّي فخْر، وإنْ تطاولتَ رضختُ رأسَك بالصّخْر. والصّخْر ترجمته الإنجليزيّة (روك)، وقريتي هي كفر الروك.

وما إنْ إلى المقهى دلفْنا، وبالتّرحاب قُوبلنا. حتّى طرْبشوا منّي الرأس، وقلّدوني عصا ثقيلةً كفأس، وعباءةً مطرَّزةً كملكٍ ذي بأس. ثمّ جاءني النّادل، بسحلبٍ عاجل. وإذا هو ماسخٌ ثخين، يُؤكَل بالملعقة والسكّين! قلت: ما هذه السَّماجة، وما تلك

(١) جاوز الحزام الطبيين: مثل يُضرب للكناية عن تجاوز حد الشرّ والأذى.

(٢) الشاي الكشري: طريقة لعمل الشاي لا يُغلى فيها مع الماء، ولا يفضّلها القرويون.

الفَجاجة؟ أشرابًا أمْ طعامًا تصنعون، وبالجرام أمْ بالطنّ تَزِنون؟! اعْلموا أنّ خيرَ الأمور أوسْطها، والسَّرَف فيها يُفسدها.

ولمّا حانَ للانصراف ساعة، قال: دُرْ بنا على تلك القاعة. قلتُ: وما فيها يا تُرى؟ قال: الآن تَسمع وتَرى. وإذْ بها للرّقص صالة، روّادها حُسالة[1]. شربوا كأسَ الجهالة، وركبوا مركبَ الضّلالة. بأيديهم أقداح، يرشفون منها الرّاح[2]. وعلى أنغام موسيقى تصدح، كلّ إناءٍ بما فيه ينضح. ثياب عارية، ولحوم بادية. رقْصٌ ومجون، وتهتُّك مجنون. وميوعة وخلاعة، على مدار السّاعة. حتّى أضواء السقف المُتدلِّية، خافتة واهية. وتتلوّى كأفعى، أو حيّة تسعى! قلت: ما هذا يا كبير القُوّاد[3]، أمديرٌ أنت أمْ قَوّاد[4]؟ لو رأى هذا إبليسُ لاسْتحَى، وبصَق عليهم وانْتحَى! أخشى أنَّ الشمسَ تُكسَف، والأرض ها هنا تُخسَف. قال: لا تَعْجَل عليهم يا قرويّ، لَربّما إيمانهم قويّ، وباطنهم سويّ. فعجبتُ منه وقلت: الْعب غيرها يا بَهلوان، فالعمل والإيمانُ فرسا رهان. ومَن بينهما فصَل، وقطَع ما اتّصل. كان يوم القيامة أقلّ مِن قِلّة، وأذلّ مِن ذِلّة، وما له عند الله مِن عِلّة.

(١) الحسالة، والحثالة: أسافل الناس وأراذلهم.

(٢) الرّاح: الخمر.

(٣) القُوّاد: بضم القاف، جمع قائد، مثل قائد جيش أو فرقة أو ما شابه.

(٤) قوّاد: وسيط للفحشاء.

ثمّ لمّا دُحِضت حجّتُه قال: هذه سياحةٌ يا أبقراط، تضخّ في الاقتصاد النّشاط. ألَا ترى أنّنا نأكل ممّا لا نزرع، ونلبس ما لا نصنع؟! وحاجتنا إلى الـدّولار، كحاجتنا إلى الدّار! ثمّ إنّها لِسوق العمل شريان، يوظّف ألوفَ الشبّان. قلت: تجوع الحُرّة وتَصبر، ولا تَأكل بثدْيها وتَفْجر. ومَن قايض الأخلاقَ بالمال، خسر البدايةَ والمآل. ثمّ لماذا تُطفئون عليهم الأنوار، أترهقُكُم الأسعار؟ أم تلسعُكُم الفواتير، لسْع الدّبابير؟ قال: هذه أجواءُ شاعريّة، مفعَمةٌ بالرّومانسيّة، لا تفهمها يا ساذجَ النيّة. قلت: سُقْني إلى المسجد، أتوضّأ وأسجد. لعلّ اللهَ ذا الملَكوت والجبَروت والعظَموت، يُنزل علينا فيْضًا لا ينقضي من الرَّحَموت[1]. قال: لا مسجدَ هنا كما تَرى، وهكذا هي القُرى. قلت: هذا فراقُ بينك وبيني، ولْتُقلّني السيارةُ إلى بيتي. فقلوب العباد رهيفة، والشّهوات كالجوائح مُخيفة. وطوبي لَمن قلبه كالزّجاج فيدفعها، ويا ويْل مَن قلبه كالإسفنج يتشرَّبها. ثمّ تلوتُ على مسامعه قولَ الشاعر:

«يَعيشُ المَرءُ ما اسْتَحْيا بخيرٍ ... ويَبقى العُودُ ما بَقِيَ اللِّحاءُ
إذا لَم تَخْشَ عاقبةَ اللَّيالي ... ولَم تَسْتحِ فاصْنَعْ ما تشاءُ
فلا وأبِيكَ ما في العيْشِ خيرٌ ... ولا الدّنيا إذا ذهَب الحياءُ»[2]

(١) الرّحَموت: الرحمة.

(٢) القصيدة للشاعر أبي تمام.

المقامةُ التّاسعة

وتُعرَف بالبحْريّة

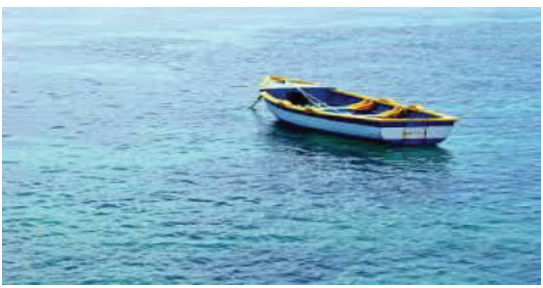

حكى أبقراط بن قحطان، قال:

سرَج التّعَبُ أصائلَ أجْياده، وحشَد ضدّنا خيْرَ أجْناده. فتَواعدْنا على اللّقاء، نحن خمسة أصدقاء. نفوسنا توّاقة، وآمالنا برّاقة. مِنّا محاسبٌ يصل اللّيل بالنهار، ليعالج التهابًا حادًّا بالأسعار، شوَى الناسَ كشيّ الجلد بالنّار. ومِنّا معلِّمٌ ضاعتْ هيْبتُه، وهِينت كرامتُه. فتَراجع التعليم وماع، وبِتْنا في أدنى القاع. ومِنّا تاجرٌ صَدوق، لا يحتكرُ السُّوق، ولا يَقرَب الرّبا المَمْحوق.

ومِنّا موظّفٌ لا يَرتشي، وعنْ زملائه لا ينمّ ولا يَشي، ويَرقب الله في الجَليّ والخَفي. إنْ حلَف لا يَحنَث، وإنْ وَعد لا يَنكِث. ومِنّا مديرٌ متميّز، يَعدِل ولا يَتحيّز. ويتواضع ولا يتكبّر، ويَرحم ولا يَتجبّر. يُقيل لمرؤوسيه العثَرات، ويعفو عن الزلّات.. وهُم في هذا مَعْلمٌ يُهتدَى، ومِثالٌ يُحتذَى. فكلّ النّاس خاسرون، إلّا الذين يؤمنون. ثمّ بالصالحات يعملون، وبالحقّ والصّبر يتواصون.

وما إنِ اكتمَل النِّصاب، وافتُتِح الخِطاب. حتّى انهالت الاقتراحات، بالتنزُّه في المُنتزَهات، وسطَ الورود الزّاهرات. أو التجوّل في الأسْواق، والتفرُّس في الأذْواق. أو الهروب إلى الصّحراء، حيث السِّحر والبهاء، والهدوء والصّفاء. أو زيارة الآثار، واستعادة الأخبار.

ولمّا كان الجوُّ لافِحا، والمصايفُ مُنكَرها بَيِّنًا واضحا. والزَّبَدُ نصيبَ الشّواطئ، والعُمْقُ مخْبأَ اللآلئ.. قرّرنا القيام برحلة بَحْريّة، نركب فيها البحْر بِحُرّيّة. السّماء تُظِلُّنا، والماء يُقِلُّنا. بينما النّسيم يَزفّنا، ورحمة الله تَلفّنا. فالبحْرُ للخيْر مَنجم، وللشّعراء مَغنم. سواحله مترامية، وأسراره خافية. الدُرُّ في قاعه يَرسو، والسَّفينُ سطحَه يَعلو. في هدْأته أَحَنّ

مِن صدْر، وفي غضْبته أقسى مِن غدْر. وإليه نلجأ كما لجأ الأخطل[1] فقال:

«يـا نـسـيـمَ الـبـحْـرِ سـلام زارك اليومَ صبُّك المُستهامُ
إنْ تكُن ما عرفْتَني فلكَ العُذر فقد غـيَّر المُـحِـبَّ الـسِّـقـامُ
وتَـذكَّـر الـغـلامَ (رشـيـدا) إنِّي يـا نسيمُ ذاك الـغـلامُ»

وبعدما تجهّز الصّحاب، وقالوا: هذا مغتسَلٌ باردٌ وشراب. انطلقْنا سَويَّة[2]، في ساعة الضَّحِيَّة[3]. فمَخرْنا العُباب، بمَركَبٍ عُجاب. صُنع من ألياف الزجاج، وجُهِّز بما نحتاج. من ماء فرات، وعصائر ووجبات، وآلات صيدٍ وتلسْكوبات. وأجهزة للاتّصال، وأخرى عمّا يعتري الطقسَ من أحوال. لِمُحرِّكه طاقة، تُسيِّره برشاقة. فلا ينطلق كالصاروخ، لِنَهلع ونَدُوخ. ولا يزحف كالنّمْل، لِنَسأم ونملّ. وأعجَبُ تصميماتِه الهندسيّة، قاعدة ممرَّدَة[4] بلَّوْريّة. تعمل كشاشةٍ بكْماء، تعكس ما في البحر مِن أحياء.. فهذه شُعَب مرجانيّة، ملوَّنة بَهيّة. وهذا سمكٌ كزخّات المطر، لا عينٌ رأت ولا على قلبٍ خطَر. وسبحان الذي فطَر، وحرّم البطَر.

(١) الشاعر اللبناني رشيد سليم الخوري، الملقَّب بالأخطل الصغير، والمعروف بالشاعر القروي.
(٢) سويّة: معًا.
(٣) الضَّحيّة: الضُّحى.
(٤) ممرّدة: ملساء.

وإزاء هذا الجمال النّاطق، بقدرة الله الخالق. وذاك المنظر الفتّان، الذي خلَب منّا الأذهان. فملأ بالبَهْجِ المُهَج، وحمل اللّسانَ على اللهَج. بالتسبيح والتّمجيد، والتكبير والتحميد.. ما كان من معلِّمنا التقيّ، إلّا أن شرع في التّلاوة بصوتٍ نَديّ: «وهو الذي سخّر البحرَ لتأكلوا منه لحْمًا طريًّا وتَستخرجوا منه حِلْيةً تلبَسونها وترى الفُلكَ مواخِر فيه ولتبتغوا مِن فضلهِ ولعلّكم تشكرون»[1]

يقول ابنُ قحطان:

وبعدَ ساعةٍ من النّشْوة، مرّت كأنها غفْوة. إذ أيّام الحزن أعوام، بينما أعوام السّعادة أيّام.. لاحت لنا جزيرة، صغيرة مستديرة. رمالها صافية، كالبلّوْر زاهية. وتخلو من بيوت أهل المدَر، وخيام أهل الوبَر. ولمّا بدَت لنا كبدرٍ ساطع في الظّلماء، وظِلٍّ وارف في الصحراء. أقسمْنا ألّا نبغي عنها حِوَلا، ولا نرضى بغيرها بدَلا. وهتفْنا كالثّوّار، ها هنا القرار، وطُوبى للأحرار. وعلى الفوْر، وزَّعنا العملَ بالدّوْر. فهذا أنامله كالشِّباك، وهوايته صيد الأسماك. وهذا يَسعى لِيحْطِب، ولِطعام النّار يَجْلِب. وهذا بالطبْخ شرَع، وفيه أبْدع وبرَع. وهذا للسِّماط يَمُدّ، وللجَلْسة يُعِدّ. فيدُ الله مع الجماعة، ولكنْ أيّة جماعة؟ لا شكّ أنها تلك التي سَلِمت مِن الجهالة، ونأَت عن الضّلالة.

---

(١) سورة النحل. آية ١٤

وبانقضاء فاصلٍ من النّشاط، سادَهُ المرح والاغتباط. فاح للطعام العَرْف[1]، وامتدّت الأيدي للغَرْف. فتَجهَّزَت المائدةُ كعروس، ونحن إزاءها جلوس. وبينما على الطّعام نُبسْمِل، ومِن فرْط السعادة نَثْمَل[2]. إذ بدَويٍّ لرصاص، وجنودٍ تتراصّ. بالسّلاح مدَجَّجين، وبالأقنعة مُلثَّمين. ينتعلون البَساطير[3]، وشَرُّهم مُستطير[4]. فصِحنا: يا ستّار، أهؤلاء التَّتار؟! فأمرونا بالانبطاح، والكفّ عن الصّياح. وقالوا: هذه قاعدة عسكريّة، للعمليّات النَّوْعيّة. ويُمنَع الاقتراب، أيًّا كانت الأسباب.

ثمّ لمّا سألوا: بأيّ طائرةٍ حضرْتم؟ وأيّ الأسلحة استخدمْتم؟ ولحساب أيّ دولةٍ تَخابرْتم؟ صِرْنا من الدّهشة نُتهْتِه، وكِدنا من المَلْهاة نُقهْقه. إذْ جئْنا ننشدُ الرّاحة على قارب، وما لنا سواها مآرب. وها نحن لا نحمل السُّيوف، ولا نُهدّد بالحُتوف! كما لا نرشق بالنَّبْل[5]، ولا نُضمر التَّبْل[6]. ثمّ أصدر قائدُهم الأمْر، بوضْعنا قيْد

(١) العَرْف: الرّائحة الطيِّبة.

(٢) نثمَل: من الثَّمَل وهو السُّكْر.

(٣) البساطير: جمع بِسْطار، وهو حذاء يرتديه العسكريّون أثناء الخدمة، ويُعرَف بالبيادة.

(٤) مستطير: منتشر.

(٥) النَّبْل: السّهام، ومفردها نَبْلة.

(٦) التَّبْل: العداوة.

الأسْر. مع تجريدنا من الأموال، وأجهزة الاتّصال! وأكَّد على شدّ الوَثاق[١]، مخافة الإباق[٢]. فشُلّت أيدينا عن اللّمْس، وكَلّت شفاهُنا عن الهمْس. وبِتنا نُسبِّح في سكوت، كيونس في بطن الحوت.

يقول أبقراط:

ولمّا أزمع[٣] النّهارُ الذّهاب، وجنحَت ذُكاءُ[٤] إلى الغياب. وجدْنا أنّ الشّأنَ جَدّ، ولا بدّ من وضْع حَدّ. فانبرى أفصحُنا: أمَا مِن يافطةٍ تُوجِّه، ولافتةٍ تنبِّه؟! أو سِلكٍ شائكٍ يَحظُر، وجنودٍ تَحرس وتَخفُر؟ قالوا: هذا موقعٌ سِرِّيّ، ولا يجوز هذا التّدبير الصُّورِيّ. فأقْسمْنا لهم بكلّ مُقدَّس، أنّنا لِتراب الوطن نُقدِّس. وأنّ تُهَمَهم افتراء، نحن منها بَراء. ومن العار والشَّنار، أنْ لا نحمي الذِّمار[٥]. ثمّ طفقْنا نقبّل الرّؤوس، وللأيادي نَبوس. وباللِّين نستعْطفهم، وبالله نستحْلفهم. وبالأرحام نناديهم، أن يكفّوا أيديهم. حتّى أطلقوا لنا السَّراح، بعد تعهُّدٍ صُراح. بأنْ نحضر نحن السّادة، في مقرّ القيادة. لاستكمال التحقيق، وبالله التوفيق!

---

(١) الوثاق: القيد.

(٢) الإباق: الهرب.

(٣) أزْمع: عزَم وقرّر.

(٤) ذُكاء: اسم من الأسماء العديدة للشمس.

(٥) الذِّمار: كلّ ما يجب حفظه وحمايته.

المقامةُ العاشرة

وتُعرَف بالمَنزِليّة

حدّثنا أبقراط بن قحطان، قال:

بعدَ يوم عملٍ مُرهِق، يبدأ مع صباح مُشرِق. أُداوي فيه مرضًى لَهْفَى [1]، هناك بين جنَبات المستشفَى. وينتهي في العيادة، كما هي العادة، في العاشرة وزيادة.. تَوسّدتُ الوِساد، لأهزم الإجهاد. استعدادًا ليوم جديد، على عمَلنا شهيد. فبِئْستِ اليد إنْ تَعطّلَت، وتبلّدَت وتبطّلَت. وتَعِست البلادُ فينا، إن خلَت مِن عالمٍ يُفتينا، وطبيبٍ يداوينا.

(١) لَهْفَى: من اللهْف وهو الحزن والأسى.

وبينما أغوصُ في الأحلام، وأرِفّ كالحمام. وسْط عالمٍ بهيج، آمنٍ كالحجيج. إذْ بيديْن كمعْول تَهـوي، على الباب تَطرُق وتَعْوِي. انهض يا طبيب، لديّ ظرفٌ عصيب. أشدُّ مِن بَلِيّة، وأشْبَه بالمَنِيّة.. حسبْتُ القيامةَ حانَت، والسّاعة آنَت. أو الثورة تَفجّرَت، وأوطاننا تَحرَّرت! فقفزْتُ إلى الباب، أتعثّر في الجلباب. بينما الأطفال يصرخون، وبالدّولاب يختبئون. وإذْ بأحدهم طويلٌ كدهْر، عريضٌ كبحْر. في عباءَته مُلتَفّ، لا يُرَى منه سوى اللّحْظ والكفّ. في عينيه غَمَص[1]، وفي كلامه رَقَـص[2]. يُريدني في زيارَة، لداره بآخِر الحارَة! قلت: ما الخطْبُ يا إنسان؟ أراك هائجًا كالثيران؟! وما هذا الذي حدث، أفَرّ الأمواتُ من الجدَث؟! قال: بل زوجتي من المغصّ تتلوّى، ومن الإسهال شحمها ولّى. والطقس بارد ماطِر، وأخشى عليها المخاطِر. ولمّا رآني همْهمْتُ، وتمْلمْلت وغمْغمْت. إذْ إنّ الأمر يسير، ولا يستحقّ النّفير. لوّح بالنقْديْن، وبمُجازاتي الضّعْف ضعفيْن. وهو ما أثارَ حفيظتي، وأسالَ لعابَ زوجتي. المُنبطِحة تحت السّرير، فزِعةً كالسّنانير! وكأنّنا في غارة، دوّت لها صَفّارة.

(١) غَمَص: وسخ أبيض يكون في مجرى الدمع من العين.

(٢) رَقَص: خِفّة وعجلة وسرعة.

ولمّا خشيتُ منه القَطيعة، ومِن زوجته دعوة مُهلِكة مُريعة.. تَجهّزتُ على مضَض، متثاقلًا كمَن به رضَض [١]. فناولتْني حليلتي حقيبة، أشبه بالزّكيبة[٢]. منبعجة كزِير، وثقيلة كحِمل بعِير. ثمّ لفَّعتْني بحِرام لها وثير، يقيني بردًا كالزّمهرير. ولأنّ الأرضَ بالمطر مبلولة، والدّروبَ بالطّين موحولة. بعدما عُصرت السّحُب عصْرا، وغُمرت الأرضُ غمْرا. صرتُ لخطواتي أتحسّس، وبيدي للجدران أتلمّس. بيْد أنّ الحذَر، لا يُغني مِن قدَر. إذْ خانني الوِطاء، وانْزلق بي الحذاء. فطِرتُ في الهواء كالكرة، وهويْتُ على المؤخِّرة. وانطلقَت من الحنجرة، صيحةٌ هادرة. آآآآآه، وا أُمّاه، وا أبتاه. كما تبعثرَت الحقيبة، وكانت فضيحة عجيبة. ولولا أنّ النّاس نِيام، لصوّروها بالكام [٣]. وشارَكوها إنستجرام، وبِتُّ حديث الأنام. إذ قليلُ الخلْق مَن يسترُ وينْصح، وكثيرُهم يهتك ويفضح. سيّما بعدما تلطّخْتُ بوحل الطّريق، وصرتُ أترنّح في المشْي كالبطريق. وأتأوّه كمَن أصابه منجنيق، أو شبّ بمؤخّرته حريق. وفي هذا تذكّرتُ قول الشّاعر:

«صَرِّف أَساكَ فلا محالةَ واقعٌ بك ما تُحبُّ من الأمورِ وتكرهُ»

(١) رضَض: كسْر، يُقال رضّ الشيء أي كسَره أو دقّه وضرَبه بشدّة.

(٢) الزّكيبة: كيس كبير من خيش ونحوه.

(٣) أي بالكاميرا، وهي آلة التصوير.

يقول ابنُ قحطان:

ومع أنّ مظهري وبلا غلوّ، صار يرقّ له العدوّ. إلّا أنّ رفيق الـدَّرَر[1]، لم يبالِ بما بي من ضرر. وعرض أن يحملني كالشُّوال[2]، أو يجرّني جرّ البغال للأحمال! مدَّعيًا أنّ زوجته المسْكينة، فارقتها السَّكينة. وعلى سريرها هاجعة، أرقة متوجِّعة. ولم ينْس الدّيباجة، المُتداوَلة في غير حاجة. بأنّ الطَّبيبَ للرحمة نصير، وللملائكةِ نظير. قلتُ يا هذا: فروضُ الطاعة، مرهونةٌ بالاستطاعة. ووالله إنّي في هذه الحال، لأَصْدق مِثال. على قوْل مَن قال، أَأَعمَش وكحّال!

والعجيبُ واللامعقول، أنّنا عند الوصول. وجدْنا الزوجةَ المُصانة، في منتهى الرّصانة. ومتربِّعة قبالة طبقٍ عميق، يعجّ ببيْضٍ سليق. لو أتَت على ما فيه مِن عدد، لصارت تَبيض ولا تَلد. قلت: كيف المغصُ والأوجـاع؟ قالت: داويتُه بالزّنجبيل والنعناع، فشُفيتُ بعد ارتياع. قلت: وماذا عن الإسْهال؟ قالت: فتَك به قشرُ البرتقال، والحمد لله المُتعال. ثمّ رقَّت لحالتي الصّعْبة، وناولتْني من الطّبق بيْضة. وقالت: صحبتْكَ السلامة، يا طبيبَ النّدامة.

---

(١) الدَّرر: القصْد، يُقال هم على دَرَر واحد، أي على قصْد واحد.

(٢) الشّوال: برفع الشين أو كسرها، كيس من خيش يُعبّأ فيه الحبّ أو الدقيق ونحوه.

فلا حاجة لنا في زيارتِك، ودوائِك ووصْفتِك! فانفتلْتُ[1] ظافرًا بالبيْضة، ودعوتُ الله أن تدهمها الهيْضة[2].

يقول أبقراط:

ولمّا عُدت أدراجي، نافخًا أوداجي. فتّشَتْني الزوجةُ اللّئيمة، بحثًا عن الغنيمة. لتسدّ ديْن البقّال، وتستبدلَ ما لدينا من أسمال. ولَمّا لم تظْفر بسوى البيْضة، قالت وهي ممتعِضة. ما هذه الإثابة، أهذا قرار النقابة؟! قلت: لكِ الثُّمُن لا الثُّمنيْن، وللأولاد الذّكر مثل حظّ الأنثييْن. هكذا قال الشّرْع في القرآن، ودَعكِ من شرْع (السِّبْسي)[3] ابن عَلمان. ثمّ زمِّليني وعجِّلي، فلا بارك الله في الكشْفَ المَنزِلي.

***

(١) انفتل: انصرف.

(٢) الهيْضة: وباء الكوليرا الشهير.

(٣) السبسي ابن عَلمان: إشارة إلى قانون عَلمانيّ تبنّاه الرئيس التونسي (الباجي قائد السبسي)، يَقضي بمساواة الذكر والأنثى في الميراث الشرعي!

المقامةُ الحاديةُ عشرة

وتُعرَف بالعِشْقيّة

روى أبقراط بن قحطان، قال:

بينما أنا بالعمَل، أزرع في مرضاي الأمَـل. وأُسرِّح الطَّرْف في المراجع، فأتصيّد العِلمَ الناجع. إذْ باستدعاءٍ عاجل، على لسان ممرّضٍ واجِل[1]. أَلْفيْتُها فتاةً في العشرين، مَسّد العرقُ منها الجبين. واهنةً بالكاد تهمس، وبالأهداب ترمِش. دمعها على الخدّ يَهمِي، ولعابها من زاوية الفم يجري. حدَقَتُها أضيق مِن سَمّ الخِياط، والقومُ حولها في هِياط ومِياط[2].

(١) واجِل: خائف فَزِع.

(٢) هِياطٍ ومِياط: ضِجاج وشرٍّ وجلَبة.

ولمّا كانت الأعراض البادية، وكذا العلاماتُ الهادية. تشير إلى تسمُّم مَقيت، بسُمّ الفئران المميت.. وجبَت لها رعاية مميَّزة، بقسم العناية المركَّزة. حيث طفِقنا بمحاليل الوريد نُغذِّيها، وبإبر الأتروبين نُداويها. وبغاز الأوكسجين نُنعشها، والسّوائل الزائدة نجفّفها. إلى أن عادت لوعْيها، واستردّت عافيتَها، وتنفَّس الصعداءَ أهلُها.

ولأنّ الانتحار جريرة، وفي شرْع الله كبيرة. كان لا بدّ من السؤال عن السّبَب، حتى يَبطُل العجَب. وعندها تبيَّن أنّ الفتاةَ ولهانة، بشابٍّ من البِطانة[1]. يتحابّان كبَنِي عُذْرة، ويتحدّيان الأسْرة. ويُعيدان سيرة قيْسٍ وعرْوة وجَميل، وما أصابهم من داء العشق الوبيل. فيتهاديان من الشَّعر بخُصْلة، ومن الأظافر بفَضْلة. ويُبلِّلان الرسائلَ بالدموع، علامة على عمق الولوع[2]. بل ويحرقان الأوراق، بلهيب الأشواق. ويكْتحل طرْفاهُما بالسُّهاد، ويتقلَّبان على شوْك القتاد! قلت: لكِ الله يا فتاة، فالحُبّ روح الحياة. به تصفو الأذهان، ويطمئنّ الجَنان. كما يُطلِق اللّسان، ويُشجِّع الجَبان. ويُسخِّي البخيل، ويشفي العليل. عجِّلوا لهما الزواج، ولا تتناطحوا كالنّعاج. وإيّاكم والعناد ما استطعتُم، فهو الطامّة إن فعلتُم. ولا تلوموا المُحبّ في هواه، حتى تَطْووا القلبَ على ما طواه، وتُقاسوا

(١) البطانة: بطانة الرجل هم أهله وأقرباؤه.

(٢) الولوع: شدّة التعلُّق.

ما قاساه. واعْلموا أنّ مَن حُرم الوصال، عاشَ في الخيال، وأدركه الخَبال.. فتهلّل وجهُ الفتاة واستدار، وبالفرح أضاء واستنار.

ولمّا سمع أبوها مقالتي، قبضَ بكلتا يديْه على رقبتي. وقال: مَهْ[1] يا أبُقراط، يا أخْرق من زوجةِ سقراط. لا تكن كداوود في حُكمه بين الأخويْن، وتَذكَّر يا أرْعن أنّ لك أُذنيْن. ولا تخطئ جيادَ القوارير، وتُقلّد الجواهرَ للخنازير! فقلت: هاتِ ما عندك يا وليّ الأمْر، فطاعتك واجبٌ وأمْر. قال: الشّباب مطيّة الجهل، والكِبَر مطيّة العقل. وهذا الشابّ عن العملِ عاطل، وسلوكه لا يخلو من باطل. فلأصدقاء السّوء يَطرَب، والمقاهي لهم مأرَب. ولهذا بإصرارٍ رفضْت، وعلى موقفي أصررْت. قلت: إنّك والله لَبصير، ورأيك رأيٌ خَمير[2]. أطيعي أباكِ يا فتاة، وأزيلي عن عينِك القَذاة. فالحقّ لا يخدمُه باطل، ولا ينهض به عاطل. والعاطفة وقودٌ ليومٍ وشهْر، بينما العقلُ مئونة دهْر. وإيّاكِ وغضْبة الأب، فغضبه من غضَب الربّ. وعيْن الشّقاء، إنْ حُرمنا الآباء. ثمّ إنّكِ بَعدُ صغيرة، وآراؤكِ فَطيرة. فاعتدلتْ في جلستها وقالت: تفكيركم عفَى عليه الزّمان، وخلّفَه وراءه الرُّكبان. سأتزوّجه أو أهلِك دونَه، وإن بنَى

(١) مَهْ: اكْفُف.

(٢) رأي خمير: رأي ناضج لأنه صادر عن تفكير ورَويّة، ومضادّه الرأي الفطير.

أبي سدودَه. وتَذكَّر يا أبقراط أنّك قد تجدُ في الأنهار، ما لا تجده في البحار. فغضب الأبُ غضْبة مُضَريّة[١]، وعضّها بأنيابه القويّة. ثمّ الرأسَ صقَع[٢]، والقفا صفَع. والجنْبَ بالكَفّ وكَز، وبالإصبع وخَز. ولوْلا أنْ حُلنا بينه وبينها، لَتابَع لطْمها وركْلها ولكْمها! وكأنّه المَعْنِيّ، بقول الشّاعر القَرويّ:

«يا أب إنْ كنتَ أخا حكمة هُــزَّ عـصـا الأديـــب للابن
فــإنّــما أنـــتَ بـتـقـويـمـه أوْلى من الشرطيّ والسّجن»

يقول ابنُ قحطان:

وبعدَ أن مرَّت تحت جسر العمْر سنون، وعبرَت فوقه ريْبُ المَنون[٣]. ألفَيْتُها في دهليز المَشفى، بائسةً كمَن يُقاسي المنفى. ووجهُها يعجّ بالكدمات والسّحجات، كأنّها خاضت للملاكمة جوَلات. ضدّ (كلاي)[٤]في عزّ مجده، أو (تايسون)[٥]دبّابة عهده! عرفتْني فنادتْني، وبالخطْب أخبرتْني. إذ حقَّقَت مُناها، فتزوّجَت

(١) غضْبة مُضَريّة: يُضرب بذلك المثل في شدة الغضب الذي يثير النقْع ويخلع القلوب ويستلّ السيوف ويسفك الدماء.

(٢) الصّقْع: الضرْب بالرّاحة على مُقدّم الرأس.

(٣) ريْب المنون: حوادث الدهر ومصائبه.

(٤) كلاي: بطل الملاكمة الأسطوري محمد علي كلاي (١٩٤٢-٢٠١٦م)، والملقَّب بالفراشة.

(٥) تايسون: الأمريكي مايك تايسون (١٩٦٦-....)، بطل العالم للملاكمة في الوزن الثقيل، والملقَّب بالرجل الحديدي أو الدبّابة.

فَتاها، وما أطاعت أباها. وإنْ هي إلّا فتْرة، ذهبت بعدها السّكْرة، وعادت لها الفكْرة. فمَن حسبتْه (هارون)، إذْ به (فرعون). ومَن أمّلها بعيشٍ أنعم من الحرير، إذْ بها لا تجد حتّى الحصير. ومَن غازلها بكلامٍ معسول، وعبّأ لها العِشق في كبسول. صار يُصبِّحها سبًّا، ويُمسِّيها ضربًا. بعدما بات عبدًا للتّرامادول، والتدخين والكحول!

قلتُ وقد غلى دمي في العروق، وما أردتُ إلّا تبْكيتها بالعقوق. أما سمعْتِ أنّ ضرب الحبيب، ألذّ من طعم الزَّبيب؟! وأنّ بصلة المُحِبّ الولهان، ألذّ من لحْم الخرفان، وأصحّ من لحْم الغزلان؟! قالت: بئسَ القائل والمَقول، إن هي إلّا تخاريفُ عقول. فالعشقُ عن الحقّ يُعمي، وعن الهُدى بعيدًا يَرمي. وفيه القلبُ يُحتبَس، والعقلُ يُختَلَس. ومَن قدّم الهوَى على العقل هوَى، بينما مَن قدَّم العقلَ في النّعيم ثوَى، وإلى ركنٍ شديد أوَى. وها قد فِئتُ عن غيِّي، وثُبتُ إلى رشْدي ووعْيي. وآمنتُ برأي أبي والجدود، والله ورسُله على ما أقولُ شهود. قلت: هذا جزاءُ الجَهول، يركب رأسه ويقول. حريّة رأيٍ واستقلال، ومِن وهْم العِشق يكتال. حتّى على أمّ رأسه وقَع، عرف أنّ الحقَّ أحقُّ أن يُتَّبَع.

وساعتها يقول: لوْ وهيْهات، وليْت ولات. ثمّ يُنشد ويَجأر، وبقوْل الشّاعر[1] يَزأر:

«ويحـكَ يا قلبي ما أغفلك! تعشق مَن يعشق أن يقتلَك؟
وأنـتَ يـا طـرْفي أوْقعْتَني ويْحـكَ يا طـرْفُ ما لي ولك؟
قد كـان مِـن حـقِّ بُكاي على مَن يُبتلَى بالحُبِّ أن يَشغلَك
حتى تـوصّـلْـتَ لقلبي، فلا كنتَ ولا كان الذي أَرسلَك»

❊ ❊ ❊

(١) القصيدة لأبي عبد الله بن الحجاج، في كتاب ذمّ الهوى لابن الجوزي.

المقامةُ الثّانية عشرة

وتُعرَف بالزّوجيّة

حدّثنا أبقراط بن قحطان، قال:

مِن بين مرضاي سيّدة، ترقّ لحالها الأفئدة. بعدما حلّ بها السرطان، وآلَمها حتّى البَنان.. في نخاع العظْم انتشَر، وبالغدد اللّيمفاويّة انتشَر. كما الرئتيْن افترَس، والكبدَ افـترَش. ومع هذا تبْدو محتسِبةً صابرة، وبلسانها تتلو ذاكرة: {الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضتُ فهو يشفين}[1].

(١) سورة الشعراء، الآيات ٧٨-٨٠.

ولمّا كان علاجُها متعذِّرا، بدا زوجُها متأثِّرا. من الحزن الدفين ينزف، وللدّمع السّخين يذرف. ويُقرّ لي كلّ زيارة، أنّ فقدها أفدح خسارة. وأنّ عيشَه بعدها مُحال، وموتَه بصحْبتها حلال. إذْ هي يده التي تقبض، وقلبه الذي ينبض. وعينه التى ترَى، وكساؤه إنْ عرَى. هي زوجة العُمْر، وبيضة العُقْر[1]. عاشرَها نيّفًا وثلاثين، ورُزق منها البناتِ والبنين. وعلى يديْها أتاه الخير، وحلَّق سعيدًا كالطّيْر. فأكْبرْتُه واحترمْتُه، وبالوفاء وسمْتُه، وعلى الملأ مدحْتُه. وتفكّرتُ كيف أنّ الدّهر يومان: يومُ عَبْرة[2] وبلاء، ويومُ حَبْرة[3] ورخاء. وأنّ الحبّ تارةً دواءٌ ونعيم، وتارةً داءٌ وجحيم. أو راحةٌ وفرَح، وشقاءٌ وترَح. ثمّ ردَّدْتُ على المسامع، أنّ الطبيبَ للأقدار تابع. إن شاءتْ من المرض شفَت، وإن شاءت بالموت قضَت.

ولأنّ النّاسَ مختلفون، ولكنّهم في النوم والموت يتساوون. وكان لكلّ أجل موْعد، عنْ صاحبه لا يَقْعد.. فقدْ زار الزوجةَ ملَكُ الموْت، وحاصرها بلا فوْت. ثمّ تركها أحْطمَ من زرْع، بعدما كسرَ لها كلّ سيْف ودرْع. واستدْبرَت بذلك دار الفناء، واستقْبلَت دار البقاء. مع

(١) بيْضة العقر: تُضرب مثلا لكلّ شيء لا يكون بعده شيء من جنسه.

(٢) عَبرة: دمعة.

(٣) حَبْرة: سرور.

الصدِّيقين والشّهداء، وحَسُن أولئك رُفقاء. وعندها تَهاوَى الزّوْج، واجتاحه الأسى كالموْج. فعَنِ الطّعام صام، وفي الدّروب هام. وبالصّراخ جأَر كغلام، إلى أنْ عجب منه الأنام. واستنكروا ما فيه مِن حال، وقالوا: ما هكذا يكون الرّجال! فهُم للشّدائد صُنعوا، وبالبلاء وُعِدوا. والمرءُ بلا عقلٍ بقرة، وبلا قلبٍ صخرة. ومَن جمع بينهما فازَ بالحسنييْن، وجنى الجنّتيْن. وزادوا: ما على الحبّ بكاء، فعلى الحبّ تبكي النّساء. سيّما بعدما صار كالمخبول، يعصبُ رأسَه بمرْيول[1]. ثمّ يهتفُ باسمها ويبوح، وينادي عليها وينوح! أمّا النّساء فبه جَزلْن وسُررْن، وله وقّرْن وقدّرْن. وصار بينهنّ حكاية، وعلى ألسنتهنّ رواية. وقالوا: هذا والله سيّد، به نَحتفي ونؤيّد. وله ننساق وننقاد، ونَهَب المُهَجَ والأكباد. مِن السَّموْأل أوْفى، ومِن إياسٍ أذْكى وأصْفى.

يقول أبقراط:

وبعدَ سنين طوال، مرّت كبضع ليال. وبينما بردائي الأبيض أسعى، بين مرْضاي كحاجٍّ في مَسعَى. إذْ بالزّوج النّاعِب، برفقة فتاةٍ كاعِب. وجْنتاها بنفْسجتان، وشفتاها كَرَزَتان. نجلاء العينيْن، ناعسة الجفنيْن. أمّا حاجبها فهلالٌ ما أحسنَه، مرسومٌ بقلم دقيق ما أتقنَه! تجرّ صبيًّا في ذيلِها، وتبغِي التّأكُّد من حَملِها. خمّنتُها ابنتَه حبيبتَه، أو أختَه شقيقتَه. وما كدتُ

(١) مَرْيول: ثوب يرتديه الأطفال والطلاب والعمال فوق ملابسهم العادية للوقاية من الوسخ.

أسرد عليه ما كان، وهو الواله الهيْمان، كالهندي شاه جهان[١]. وكيف أنّه لبس العِهْن، ولم يهدأ له ذِهْن، ولا غمَض له جَفْن. ولم يبق إلّا أن يهجر الأجْصاص[٢]، ويسكن الأخْصاص[٣].. حتّى تغيّر وجه الحُرمة، واكتسى بحُلّة مِن جُهْمة[٤]. أمّا هو فكزّ على أسنانه، وقبض على عضدي ببَنانه. ثمّ بتْنا إلى جانب الغرفةِ نتدافع، وبالأكفّ كدنا نتصافع. بعدما وصفَني بهبنّقة[٥]، أفتقر للأناقة والحذْلقة[٦]. إذ تبيّن أنّ المرأةَ زوجتُه، ولا تدري عن تاريخِه وسيرتِه!

وبينما أُعاتبه، وعلى كذبه أُؤنّبه. ويُقرّ لي بالمسرحيّة، ويعتبرها من الذّكاء والرَّويّة. إذْ بالمرأة بعدما تَسمّعَت، وبالموضوع ألَّمت ووعَت. تندفع نحوه كالكبْش[٧]، وبنعالها تُذيقه البطْش. حتى شجّت الرَّأس، وكسرت السنّ والضَّرْس. بينما الصبيّ القاصر، راح للأمّ

(١) شاه جهان: هو أحد ملوك الهند، تُوفيت زوجته ممتاز محل، وبقي وفيًّا لعهدها؛ فلم يتزوج بعدها، وشيّد لها الضريح والمسجد المشهور (تاج محل).

(٢) الأجْصاص: المباني المُجَصَّصة، أي المَطلية بالجبس.

(٣) الأخْصاص: الأكواخ، ومفردها خُص وهو بيت من شجر أو قصَب.

(٤) الجُهمة: ظلمة آخر الليل.

(٥) هَبنَّقة: أحد بني قيس بن ثعلبة، قيل أنه مِن أعيا العرب، ويُضرَب به المثل في الغباء والحمْق، فيُقال أحمق مِن هبنّقة.

(٦) الحذلقة: التصرُّف بكياسة وظَرف.

(٧) الكبش: فحْل الضأن.

يناصر. فعضّ لأبيه المؤخّرتيْن، ومالَ بأنيابه على الصّدغيْن. ولمّا بات بي يستغيث، من الضرب القويّ الحثيث. قلت: إليك عنّي، إنّك لجِنّي. تكذب وتخادع، وتظنّه بنافع! ألَا ما أقصر حبل الكَذوب، وما أسوءَ عاقبة اللَّعوب. وما بدأ بالتدليس، ينتهي إلى إبليس. أمَا علمْتَ أنّ الصّدق منجاة، والكذبَ مأساة! وأنّ للكذب ذُنوب، لا يسعْها الذَّنوب[1]. وأنّ مَن صدقَت كلمتُه ولانَت، وجبَت محبّتُه وحانَت.. ثمّ تلوتُ على مسامعه قولَ الشاعر:

«لا يكذبُ المرءُ إلّا مِن مهانتِه أو عادةِ السُّوءِ أو مِن قلّة الأدبِ
لَبَعضُ جيفةِ كلبٍ خيرُ رائحةٍ مِن كذبةِ المرءِ في جدٍّ وفي لعبِ»[2]

***

(١) الذَّنوب: الدلو العظيمة.

(٢) الأبيات للشاعر الشريف العقيلي الذي عاش في ظلّ الحكم الفاطمي لمصر.

المقامةُ الثّالثة عشرة

وتُعرَف بالسُكَّريّة[1]

(١) في صحيفة المثقف وبتاريخ ١٩ ديسمبر ٢٠١٨م، علّق الشاعر العراقي الكبير (مصطفى علي) إزاء المقامة السكّريّة قائلًا: عزيزي د. منير، لا أدري، لماذا ذكّرتْني مقامتك بمقامات العلّامة أبو الثّناء الألوسي، وأسلوبه في السجع الجميل. دمت مبدعًا.

حدّثنا أبقراط بن قحطان، قال:

مَعَ قدوم الشّفَق، واقترابِ الغسَق[1]، واللّيل وما وسَق[2]. ساق (إسماعيلُ) أغنامَه، وسحبَ أنعامَه. سائرًا بمحاذاةِ الشّجَر، ناشدًا داره على مرمى حجَر. ولمّا دقّ الباب، سألتْه زوجُه مِن وراء حجاب. أخبِرني بكلمة السرّ والأمـان؟ فأجاب: محشي باذنجان. فشرعَت له على الفوْر الباب، واستقبلته بالتّرحاب، وهنّأته بسلامةِ الإياب. ثمّ حرّرَتْه من المِنجَل[3] والفأْس، وقالت: لا بأس. أمّا هو فقد وضع على العاتق الجلباب، وخطا إلى المسجد لِيُثاب.

(١) الغَسَق: ظلمة أوّل الليل.

(٢) وَسَق: جلّل وغطّى أو جمع وحمل.

(٣) المِنجَل: آلة يدويّة لحشّ الكلأ أو لحصد الزرع المستحصِد.

وبعد ختْم الصّلاة بالتّسبيح والتكبير، صافح جلّاسَه مِن الكبير إلى الصّغير. وركع ركعتيْن خفيفتَيْن، قبل أن يُطلق للرِّيح السّاقيْن. إذْ بلغ منه الطّوَى حدّ المسْغبة، وقحِل اللّسانُ كأرض مُجدِبة. وما إن جاوز عتبة الدّار، واستفْتح بالله الغفّار. حتّى فاحت رائحةُ محشي الباذنجان، مع بُعْد ما بينهما من مكان!

ولمّا كان لعابُه قد سالَ كالأنْهار، وانتعشَت بمرْأى المحْشي الأنظار. فتَكَ بالحَلّة من الميْمنة، ولم تَسلَم منه الميْسرة. ثمّ تَوغّل في الأعماق غير مُرتاع، حتّى وصل إلى القعْر والقاع. ولم يكتب للحَلّة البراء، إلّا بعد أنْ ملأ منها الأحشاء، وكفَّت مَعِيُّه عن النّداء. وعندها تمنّى لو كانت الحلّة قصعة[١]، يكبش[٢] منها بخمْسة في سبْعة[٣]. أو كان فُوه فُوهَيْن، وبطْنُه بَطْنيْن، وله كالجمل سناميْن! ولمّا هجمَت عليه الغُلّة[٤]، تناول للماء قُلّة[٥]. قرَّبتْها حرَمُه المَصون، وحليلته الحَنون. فنقَع بها غُلّتَه، وجشَأ جُشْأته[٦]. قبل أن يستلم برّادًا من الشاي السِّيلاني الماتع، زِيد في سكّره زيادة الطّامع غير

(١) قصعة: وعاء كبير مستدير يُأكل فيه.

(٢) يكبِش: يتناول، ويُقال كبَش الشيء أي تناوله بجُمْع يده.

(٣) سبعة: أي سبعة أيام في الأسبوع، أما الخمسة فهي الأصابع التي يحلو تناول المحشي بها دون الملعقة.

(٤) الغُلّة: شدّة العطش وحرارته.

(٥) القُلّة: إناء من الفَخّار يُشرَب منها.

(٦) الجُشْأة: صوت يخرج من الفم عند امتلاء المعدة.

القانع. ليَشرع في احتسائه على مهَل، كنحلٍ يمتصّ الرحيقَ للعسل.

وما إنْ ثَقُل رأسُه الحسير، وحَنّ جنبُه إلى الحصير. حتى صدح الأذان، حيّ إلى الديَّان. فغالَب الجسدَ الكليل، والرأسَ الثقيل، والبطنَ الرّبيل[١]. واصطفّ خلف إمام، خشَع واستقام، وتلا قولَ العلّام: {وكُلوا واشربوا ولا تُسرفوا}[٢].

ولمّا قفل إلى الدّار، وأوْشك من التعب ينهار. ألقى نظرةً على الأولاد، ليهْنأ منه الفؤاد. ثمّ أعطى قفاه لأمّ العيال، وراح يسبح في يَمّ الخيال. ولكنّه وعلى غير العادة، استفاق على ألمٍ كالولادة. ليُفرغ مثانةً مُكتظّة، تهدّد بالانفجار في التوّ واللّحظة. ثمّ عاوَد الكرَّة مرّات، في ليلةٍ هجَره السُّبات[٣]. إذْ خاصم الكَرى المُقْلتيْن، وانشطرَ الليل شطريْن. شطرًا يطوف حول زِيرٍ[٤] للماء، وشطرًا إلى الكَنيف[٥] يسعى والخلاء!

يقول أبقراط:

وبيْنما بين مرضاي كالطّاووس، أرْبت على كتف كلّ عَبوس، وأعالج التّيتانوس والتيفوس. رُحتُ كأبي فِراسٍ[٦] أجوس، إذْ لا فرق

---

(١) الرَّبيل: السّمين البدين.

(٢) الأعراف ٣١

(٣) السُّبات: الرّاحة.

(٤) الزِّير: جرّة كبيرة واسعة الفم منبعجة الخصر يُوضع فيها الماء للشّرب.

(٥) الكَنيف: المرحاض.

(٦) أبو فراس: أحد الألقاب العديدة للأسد.

بين رئيسٍ ومرؤوس. ولا طبقيّة أو تمييز، بين ذليل وعزيز. ولمّا لمحْتُ إسماعيلَ يتّكئ على زوجِه، ويتعثّر في دَرَجِه[1]. ولسان حاله كملدوغ، عينُه من محْجرها تَزوغ. طمْأنتُه أنّه وقع على نطاسيّ خبير، وظفر في الطّبابة بالأمير. إذْ شهدَت له أمُّه بأنّه نبيه، ولقَّبوه في الطبّ بأبيه[2]. ثمّ وخزْتُ إبهامه بقلم دقيق، لا وجَع منه ولا ضِيق. وسُقْته إلى السَّرير، وفحصته فحْص الخَبير. قبلَ المرور على المختبَر، وإجراء التحليل المُعتبَر.

وفي باحة الانتظار، جلس يُغالب الأفكار. ويضرب الأخماسَ في الأسداس، ويستعيذُ من الوسواس الخنّاس. إذْ كيف لعافيته كالدمع تنسال، بعد أن كان كالحصان في جرّ الأحمال؟! وكيف لرأسه تدور، بعد أن كانت كالبنْدول في ضبْط الأمور؟! وكيف للكسل يُقعِده، وللسَّرير يُقيِّده! بعد أن كان أبْكر مِن غراب، وأيْقظ مِن الذّئاب؟!

ولَم يَطُل به السّؤال والتّخمين، حتى جئْتُه كجَهيزةَ[3] بخبرٍ يقين، لا يُعْوزه قسَمٌ أو يمين. إذْ حلّ به داءٌ غير مَهين، فرَد أجنحتَه كالتنِّين،

(١) الدَّرَج: الطريق، ويقال رجع فلان درجه، وأدراجه: أي رجع من حيث جاء.

(٢) إشارة إلى لقب أبي الطبّ الذي حازه أبقراط، لإسهامه في تخليص الطبّ من السّحر والكهانة. وجدير بالذّكر أنّ كلمة (أبقراط) في اليونانية تعني القابض على عنان جواده، أي الفارس الماهر.

(٣) في إشارة إلى المثل العربي القائل: قطعَت جهيزة قول كل خطيب، وله قصة يرجع إليها في مظانها.

ونشب أظفارَه في أربعمائة من الملايين[1]. ولم يَنجُ من سوْطه صغيرٌ أو كبير، ولا غنيٌّ أو فقير. اسْمه من السكّر ظريف، ولكنّه بالإهمال شبحٌ مُخيف. إذْ تهزلُ منه الأبدانُ كأشجار الخريف، وتلتهب الأعصابُ والغضاريف.كما تعتلّ مِن جرّائه الأبصار، ويجرّ على الكليتيْن الأخطار. وتتقرّح من هوْله الأقـدام، حتّى لتخترق العضلاتِ والعظام. فيما يُعرف بالغرغرينة[2]، الأدْهي من خرقٍ في قاع سفينة.

وإزاءَ هذه اللّكْمة، التي وراءها ما وراء الأكْمة. أطْرَق كمَا الطّيْر على مفْرقه، ووجَم كمَن سطا على زرْعه الجرادُ وأزهقه. ثمّ أفصح وأبان، بالوجْه قبل اللّسان. فمِن الأسى اكترب، وإلى الله اشتكى ومنه اقترب. ثمّ سَبْحل[3] واستعْبَر، واسترْجَع[4] واستغْفَر. وعزم مِن المحشي الظِّهار والفراق، ومِن السّكّر الهجْر والطّلاق. ومازالت زوجُه تواسيه، وبالعافية تمنّيه. ثمّ بالعلاج تُوصيه، وباسْم الله ترقيه. حتّى هدأ منه الرّوْع، وذهب عن فؤاده اللّوْع.. فالكلمةُ الطيّبة بلسمٌ للمَقروح، وضمادةٌ للمَجروح. ولا يُجدي مع قلم الأقدار والقَضا،

(١) حسب الإحصاءات الصحية العالمية، تجاوز عدد المصابين بالسكّري ٤٢٢ مليونًا.

(٢) الغرغرينة: موت خلايا الأنسجة الحيوية بسبب نقص التروية الدموية أو الإصابة بالعدوى البكتيرية، وغالبًا ما تصيب الأطراف السفلى من الجسم.

(٣) سَبْحل: أي قال سبحان الله.

(٤) اسْترجَع: أي قال إنّا لله وإنا إليه راجعون.

سوى الاستسلام والرّضا. وقبل أن أعتنقَه مودِّعا، وبالسّلام مشيِّعا. ذكَّرْتُه بقول الفقيه الضّليع، تلميذ ابن الجرّاح وكيع[1]:

«دعِ الأيّـامَ تفعل مـا تشاء وطِبْ نفسًا إذا حكَم القضاء
ولا تَجْـزعـنّ لِحـادثـةِ الليالي فـما لِحـوادثِ الـدُّنـيـا بقاء
وكُنْ رجُلًا على الأهوال جلْدًا وشِيمتك السّماحة والوفاء»

يقول ابنُ قحطان:

أمّا زوجُه فكادت تحلّق، ومِن الطّرَب ترقص وتصفّق. ولِلسانها تطلق العَنان بالزّغاريد، كأنّها في يوم فرَح وعيد. وعزمَت على أنْ للجيران تُعَشِّي، بعدما انفكّت مِن هذا (المَحْشي). الذي طالما حنَت له الظَّهر، وشغلها في الصُّبح والظُّهر. فمِن اليوم لا (خَسْخسَة) ولا (تقْوير) ولا (تدْويل)[2]، ولا خلطةً تحتاج إلى دليل. يُعجز العصبةَ مِن النّبهاء، أهل الفيزياء والكيمياء! وبهذا صدَق في المرأة، شِعرُ مَن امتاز بالكبرياء والجرْأة[3]:

«بِـذا قضَتِ الأيـامُ بين أهلِها مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ»

***

(١) هو الإمام الشافعي رضي الله عنه (٧٦٧-٨٢٠م)، أمّا وكيع بن الجرّاح (٧٤٦-٨١٢م) فهو مِن بحور العلم الذي وصفه الإمام أحمد بن حنبل بقوله: ما رأيتُ أحدًا أوْعى للعلم ولا أحْفظ من وكيع.

(٢) الخَسْخسَة والتقوير والتدويل: مصطلحات شعبية يعرفها جيّدًا صانعو المحاشي وآكلوها، وتندرج ضمن إعدادها وتهيئتها قبل الطبخ حسب النوع.

(٣) هو المتنبّي أعظم شعراء العربية، الذي تميّز بالكبرياء والشجاعة والطموح وحبّ المغامرة.

المقامةُ الرّابعة عشرة

وتُعرَف بالكَلْبيّة[1]

(١) تعليقًا على المقامة الكلبية حال نشرها بتاريخ ٩ يونيو ٢٠١٩م، كتب الشاعر العراقي الكبير (زياد كامل السامرائي) قائلًا: «طبيب جرّاح.. يجرح الكلمة فتشفَى، من كلّ علّة فتبرَى، ليبقى في سرّها حلو المعاني، جفّت ألبانها فخصّها بالبيان. فليس وحده أبقراط طبيب اليونان، عنده أفضل ما يباع! منيرٌ أيضًا في حسنه أتباع. كشفٌ يجليها من بديع، ويخصها بالتنويع، ثم يكفّها عن التوريع. الضّرس إن ائتكل تسوّس، والحرف لو ثقل تقوّس، أُلصق بالفم وتيبّس، لكنك برقيق الكلبيّة، أهديتنا ضبيّة، نهزج منها برويّة، فسلامًا وأمنًا ومحبّة».

حدّثنا أبُقراط بن قحطان، قال:

ذاتَ سوادِ ليلٍ غابر، وفي أكنافِ الخليج العامر. رقد ابنُ البنجال[1] (سليم)، رقْدةَ أصحاب الرّقيم. وبعدما تَعمَّق في المَنام، دقّ بابَ الأحلام. ورأى فيما يرى الوَسْنان، أنّه غدا الملك (النُّعمان)[2]. يرتدي العباءة والطّيْلسان[3]، ويقبض بيدِه على الصّوْلجان[4].

(١) ابن البنجال: أي القادم من دولة بنجلاديش.

(٢) النُّعمان: هو النُّعمان بن المنذر (٥٨٢-٦٠٩م)، ورث مُلك الحيرة عن أبيه، وكان داهية مقدامًا.

(٣) الطّيلسان: كساء أخضر يلبسه الخواص من الناس.

(٤) الصولجان: عصا يحملها الملك ترمز لسلطانه.

ثمّ يصعد برجَ إيفل في باريس، ممتطيًا ظهرَ العِيس. ويطوف بالمرسيدس (بوتسدام)[١]، ويلتهم الكافْيار في (أمستردام)[٢]. بعدما أغرقَ بنجالَه النَّفْطان[٣]، وفاض فيها الأصْفران[٤]. فنَعمَ الناسُ بعيْشٍ رغْد، ورفلَوا في ثوب السّعْد!

ولمّا أقبلَ الفجرُ ولاح، وتيقَّظ الدّيك وصاح. وكَزه رفيقُه فاستفاق، كأنّما حُرّر مِن وِثاق. ليهوي مِن علِ السَّكْرة، إلى أدنى قاعِ الفكْرة. وبقلبٍ كَسيرٍ هجَر الوِساد، وبجناحٍ مَهيض بَرِح المِهاد. ثمّ أوْدع حلمَه الغياب، وطواه طيّ السّجلّ للكِتاب. وما إنْ ازْدرَد فطور الفقراء، حفْنة تمْر وجرْعة ماء! حتّى عصَب رأسَه واحْتزَم، وبأسْماله ائْتزَر وعزَم. ثمّ في أرجاء المزْرعة راح يدور، ويُهْرَع كفأرٍ مَذعور، يلاحقه قطٌّ مَوتور. يجزّ الحشيش ويرْوي الشّجَر، بلا كللٍ ولا ضجَر. ويسوم الغنم ويجْني الثَّمَر، من طلوع النّهار إلى ضوء القمَر. وفي عقبه يعْدو جرْو عجيب، في اللّون أسود غربيب. وفي حرْكته شتِيت، تراه أهْيجَ من عِفريت. ولا يفتأ يَنبح كحاطب ليْل، ويسيل لعابُه كالسّيْل.

(١) بوتسدام: مدينة ألمانية تقع جنوب غرب العاصمة برلين وتُلقَّب بمدينة القصور.

(٢) أمستردام: عاصمة هولندا وأكبر مدنها سكانًا.

(٣) النَّفطان: النفط والغاز.

(٤) الأصفران: الذهب والزعفران.

يقول ابنُ قحطان:

وفي غفلةٍ نهشَه الكلبُ الفارّ، وأسالَ مِن أدَمَتِه[١] الدّمَ الحارّ. فنادى على الجَبيل[٢]، ورفعَ صوتَه بالعويل. حتّى تفصّد بالعرقِ الجبين، وانقطع منه حبلُ الوتين، ومالَ الجيدُ[٣] إلى اليمين. فتداعَى القوْم على الفوْر، ليتداولوا بينهم الأمْر. فحضر القَضُّ[٤] من الباكستان والبنجال، والقَضيضُ من الهند والنّيبال. حتى تَعاظم الحشد داخل الحظيرة، وودُّوا لو حضرَت (البي بي سي) و(الجزيرة).

وبعدما صمَت الجمْع، وأصاخوا السّمْع. حكى سليمُ ما تمّ، بعقيرةٍ مغموسةٍ في الغمّ، وأحداقٍ دمْعها جَمّ. وعقَّب بأنّه مسكين، في المزرعة كالسّجين. ومِن البؤس والشّقاء، لا يعرف سوى الخريف والشّتاء. فشمّر كلٌّ عن ذيْله، وأدْلى بخيْر قوله. بين قائلٍ: لا غَرْو، فصغيرٌ ذاك الجرْو. وقائلٍ: لا ضيْر، جرْح بسيط لا غَيْر. وقائلٍ: البدار البدار، قُدُّوا[٥] حبلَ الانتظار. وقائلٍ: خُذوا حذْركم وانْفروا بثَبات[٦]، واعلموا أنّ للشرطة دوريّات، لا تَني

(١) الأَدَمة: طبقة عميقة من الجلد تحت البشرة وفوق اللحم، تحتوي على النهايات العصبية والغدد العَرقيّة والدهنيّة والأوعية الدمويّة والليمفاويّة.

(٢) الجَبيل: الجماعة من الناس.

(٣) الجيد: العنق.

(٤) القَضّ والقضيض: القضّ في اللغة هي الحجارة الكبيرة، والقضيض هي الحجارة الصغيرة، ويُقال جاء القوم بقضّهم وقضيضهم، أي جاؤوا جميعًا بكبارهم وصغارهم.

(٥) قُدُّوا: اقطعوا.

(٦) بثَبات: أي بشجاعة وفاعليّة.

تُدقّق في الهويّات. وبعد أنْ لجب[١] القوْم، وحانَت ساعة الحزْم بلا لوْم. أزْمعوا بالمريضِ السُّرَى[٢]، مُسْتترين بالغُبْشة[٣]والدُّجَى[٤]. ولْيفعل اللهُ ما يشاء، بعبده اللّائذ البكّاء.

وبعد أنْ قادوه كالضّرير، أوقفوه بحضرةِ الطبيب الطّرير[٥]. الذي تلقّاه بالارْتياح، ومحا من قلبه الارْتياع[٦]. ومازحه كابنِ العمّ والخال، إذْ تبيّن أنّ اسمه (إقبال). من الجارة (باكستان)، وتحديدًا من (بلوشستان)[٧]. والذي أمر من فوْره بتطهير الجراح، وحقْنه في غمضة عيْن باللقاح. وواعدَه مثلها ثلاثًا مُتتاليات، على الأيّام منجّمات. ثمّ منحَه مِن النّقديْن، ما لا ذهَب فيه ولا لُجَيْن. بعدما رآه نحيلًا كقُرص مضغوط، وعليلًا كمريض الإسقربوط[٨]! فانصرف القومُ فرِحين، وآبوا غانمين سالمين. بل زادَ الفرحُ أضعافًا كثيرة، حين لمحوا الجرْو صريعًا بجوار الحظيرة. فحمدوا الله ثلاثًا وثلاثين، ومثلها كبّروا وهلّلوا شاكرين. إذْ نجّى الله الشِّبل (سليم)، مِن

(١) لجب القوم: ضجّوا وصاحوا واختلطت أصواتهم.

(٢) السُّرَى: الذهاب ليلًا.

(٣) الغُبْشة: ظلمة آخر الليل.

(٤) الدُّجى: سواد الليل وظلمته.

(٥) الطّرير: ذو المنظر والرُّواء والهيئة الحسَنة.

(٦) الارتياع: الفزع.

(٧) بلوشستان: واحد من الأقاليم الباكستانية الكبرى.

(٨) الإسقربوط: مرض ناجم عن نقص فيتامين (ج)، ويؤدّي إلى الضعف العام ونزف اللثة وتشقّق الجلد.

مخلب داءٍ أليم! ولله درّ القائل:

«أيُّهـــا المـــوجـــوعُ: صـــبرًا ... إنّ بـعـد الـصَّـبْر بُـشرى
أيّهـــا الـبـاكـي بـلـيـلٍ ... سـوف يـأتي الـنُّـورُ فـجْـرا
أيُّهـــا المـكـسـور قُـــلْ لي ... هـل يُـديـمُ اللهُ كـسْرا؟!
يـا عـزيـزَ الـقـلـبِ مَـهْـلًا ... إنّ بـعـد الـعُـسر يُـسرا»

يقول أبقراط:

وداءُ الكَلَب داءٌ وبيل[1]، يَفنَى فيه البدنُ العليل. بعدما ينتقل من لعاب الحيوان، إلى بدن الإنسان. إثرَ عضّةٍ من كلابٍ وأرانب، أو قرودٍ وثعالب. وفيه يلتهب الدّماغ وينهار، ويحلّ بداره السّعار. بعدما يمسّه فيروس مأفون، بمَسٍّ من جنون. كما يُرهَب الماءُ في الرّوْع[2]، ويَعسُر النفَسُ والبلْع. أمّا الدّواء والطّبابة، فليس سوى الوقاية والرّقابة. على نهْج بناء السّدود لحجز الماء، ومَلْء الكنائن[3] قبل الرِّماء. وصدَقَت العرَب إذْ أخْبرَت، وفي الأضابير[4] سطّرَت:

«درْهم وقاية خيرٌ من قنطار علاج».

***

(١) وبيل: شديد الوطأة.
(٢) الرّوْع: الذّهن.
(٣) الكنائن: جمع كِنانة، وهي جعبة صغيرة من جلد أو نحوه لوضع السهام.
(٤) الأضابير: المِلفّات.

المقامةُ الخامسة عشرة

وتُعرَف بالأنْفيّة

حدَّثنا أبقراط بن قحطان، قال:

ما إنْ تَأهّب النّاظرُ للذّهاب، حتّى شرع له المدرّسون الباب. ثمّ حمَّلوه السّلامَ لنجْله الصّغير، وكالوهُ من المديح كيْلَ بعير. وهُم في مدحهم أبرياء، لا يطلبون ثمَّة جزاء. إذْ ماذا يرجو الرّيحُ من البلاط، وما حاجة الجائع إلى السِّماط[1]؟! بعدما جُنّ جنون الدّولار، والتهبَت من جرّائه الأسْعار، وتقلَّب على جمْرها الأَبشار[2].

(١) السِّماط: نسيج من ثوب، أو نحوه، يُبسَط على طاولة الأكل.

(٢) البَشَر: هو الإنسان واحدًا كان أو جمْعا، وقد يُجمَع على الأبشار.

حتّى تَوزّع الفقر بينهم بالعَدْل، في سابقةٍ ليس لها عِدْل[١]! بل آملين أنْ يغضّ طرْفَه، عن الحضور وفْق (البصمة)[٢]. فهي داهيةُ الدّواهي، أحْصت عليهم الثّواني. وصفّدتهم كالقيود، وحرَمتْهم الشّرود.

وبعدما عرَج على الدّرَج، وناله الكَلالُ[٣] والنَّهَج[٤]. دقّ للباب الجرَس، فعاجلتْه حرَمُه كالحَرَس. لماذا تأخّرتَ يا حليل[٥]، ومالي أراك كالعليل؟ قال: ماذا دهاكِ يا امرأة، وما وراءكِ من مسألة؟ قالت: هلمّ إلى الأطبّاء، وإيّاك والإبطاء. بأنْف الولد لحميّة، تحتاج إلى عمليّة. قال: وما أدراكِ وأنتِ الأُمّيّة؟ لا تفهمين في الهواتف الذكيّة، ولا تتداولين النقود الإلكترونية. قالت: الولد يَخنف يا تَرْبوي، ويَشخر بالليل ولا يَرْعوي، وفُوه مُشرَعٌ لا ينْطوي. مزكومٌ في غيْر أمشير[٦]، ولا يشمّ الحريقَ بالسَّرير. وأُزيدكَ من الشِّعر مُعلَّقَة، فتحة الأنف مُغلَّقة. بلحمةٍ ورديّةٍ نابية، كحبّةِ العنب بادية،

(١) العِدل: المِثل والنظير، ويُجمع على أعدال وعدول.

(٢) البصمة: نظام إلكتروني صارم لتسجيل حضور وانصراف الموظفين.

(٣) الكَلال: إعياء، تعب، مشقّة، عناء.

(٤) النَّهَج: تتابُع النفس بسرعة من الإجهاد او الإعياء.

(٥) حليل المرأة زوجُها، وحليل الرجل زوجُه، والجمع للمذكّر أحلّاء، وللمؤنّث حليلات وحلائل.

(٦) أمشير: هو الشهر السادس من التقويم القبطي، وفيه تهب الرياح القوية، ويبرد الجو بشدّة.

لا تخطئها عينٌ باكية. قال: أمّنْتُ على كلامكِ يا هِزَبْر[1]، ودعيني أفكّر في الأمْر، أَسكنكِ اللهُ فسيح القبْر.

يقول ابنُ قحطان:

صرَف النّاظرُ النظرَ عن الغَداء، إذْ لا شهيّةَ لهموم مُستاء. وانزوى في غرفته، يُغالب دمعتَه. ويضرب الإخوة الأخْماس، في أخواتها الأَسداس. ويزوّج الوساوس، ببنات عمّها الهواجس. إذْ مِن أين له بألوف الجنيهات، يدفعُها للطّبيب والعلاجات، عدا التّحاليل والأشعّات! وعلى طريقة الدّواء، بالّتي كان هي الدّاء. وإلى أنْ يجد المَحيص[2]، لينجو من الحِيص بِيص[3].. راح يَنشد لأبي إسحاق إسماعيل[4]:

«أصبحتُ واللهِ في مَضيق هل مِن دليلٍ إلى الطريق
أُفٍّ لدنيا تَلاعبَت بي تَلاعُبَ الموج بالغريق»

وبينما هو في فكرِه غارق، جاءه من وراء الباب صوتٌ زاعق. لا بدّ من جمعيّة، إنّها لحميّة. ولا مفرّ يا أستاذ، فالأولادُ للكبِد أفلاذ[5].

---

(١) الهِزَبْر: الأسد الكاسر.
(٢) المَحيص: المَهرب والمَفرّ.
(٣) يُقال وقع القوم في حِيص بِيص، أي في ضيق وشدّة وحيرة.
(٤) أبو العتاهية.
(٥) أفلاذ: جمع فِلذة، وهي القطعة من الكبد واللحم والذهب والفضة.

وخيْر العلاج أوّله، كما خيْر البرّ عاجله.. وهنا ثَقُل رأسُه كوعاء بالبارود غفير[1]، يُخشَى عليه مِن التّفجير والتدمير. فأراحه على الوِساد، مُستجْديًا الرّقاد. ولكنْ كيف الهجوع، لجائعٍ وموْجوع! وبعد ساعات لا تُعدّ، لم يدْرِ إلّا بالشّمس تحتدّ، معلِنةً بدْء يومٍ مُستجَدّ. يَرزُق اللهُ فيه كلَّ مَن هَبّ، ويَرقُب كلَّ مَن دَبّ.

وهناك في مكتبِه، أرْخَى مَنكِبَه. وقبع سابلًا جفنيْه، ورأسه بين راحتيْه. بعدما الْتوى عليه المطلوب، وانزوى عنه المرْغوب. ثمّ شرع يردّ السلام بالشّفتيْن، أو بإشارةٍ مِن يديْن. حتّى اقتحم صومعتَه المدرّسون، وسألوه عن المكْنون. بل ألحفوا عليه في الطّلَب، ووعدوه بقضاء الأرَب. وذكّروه بقول أبي العلاء، رهين العمَى والدّار والدّاء:

«الناسُ للناسِ مِن بدوٍ وحاضِرة بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدَم»

ولمّا تكأكأوا[2] عليه وأعْجزوه، ولم يجدْ مخرجًا سوى أن يَفُوه. حَيْعلَهم[3] إلى اجتماع، لا يُرى ولا يُذاع. ولمّا أنهى إليهم الخبَر، في تُؤدة وحذَر. انبرى أحدُهم عَرَضا، واقترح من البنك قرْضا. وتَخابَث ثانيهم وأشار، بِع الخاتَم أو السِّوار، فالذّهبُ ركب البراقَ وطار. بينما احْتكَم ثالثُهم إلى المَعاش، واعتبره غرفةَ إنعاش. فاستعاذَ بمولاه، من

(١) غفير: ممتلئ.

(٢) تكأكؤوا: تجمَّعوا عليه وازدحموا.

(٣) حيعلهم: دعاهم .

البنكِ ورِباه. وتَبرّأ ممّن يقول، بحرب الله والرّسول. براءةَ إبراهيم مِن أبيه، ونوحٍ مِن بنِيه. وحِيال الذّهب حسَر عن معصميْه، وضرب بكفّيه، ذامًّا شفتيْه. ثمّ استنكر قضْم المعاش، وعدّه رأيًا طاش. ولمّا وجم الحضور، كأنّ على رؤوسهم الطيور. ساق مقترَح الجمعيّة، فحاز رضاء الأغلبيّة. وشرعوا في الإجراء، مثابرين بلا إبطاء.

يقول أبقراط:

بينما أنا في العيادة، كما هي العادة.أزرع على وجهي ابتسامة، وألبس مرآةً كالعمامة. في صدرها ضوء مبهِر، يَنفذ للعمْق ويُظهر. لِأُدواي رعاف المناخِر، والتهاب البلاعِم والحناجِر. وأُرمّم السمْع إن عَقِم، والشمَّ إن سَقِم. إذْ بالنّاظر المُغْتَمّ يُقْبل، يجرّ صبيًّا غضًّا كزرعٍ لم يُسبِل[1]. فصوّبْتُ فيه وحدَّق، وصعّدْتُ فيه ودقَّق. ثمّ تَعانقْنا عناقَ الحبيب للحبيب، إذ كنتُ تلميذَه النّجيب. قبل أن تَدهسنا السّنون، وتُباعد بيننا الأرْضون. ويا لها من مصادَفةٍ وسيمةٍ هطلَت عليّ، خيرٌ من ألْفِ مُواعَدةٍ وُكِل أمْرها إليّ. والفضلُ لله في جمْع الشّتيتيْن بعدما، ظننّا كلّ الظنّ أنْ لا مَقْدِما.

وبعدما قصّ الحكاية، مِن (طَقْطَق)[2]حتى النّهاية. داعبتُ

(١) لم يُسبل: لم يُخرج سنابله، أي مازال في بواكيره.

(٢) طقطق: أي منذ البداية.

الطفل الرقيق، وأخضعتُ الأنفَ لفحص دقيق. ثمّ قبضتُ بالجفْت[1] على ما برز فيه، ونزعْتُها نزْعَ الخبير الفقيه. وإذْ بصديدٍ في العَقب يَبين، نتِن الرائحة ثخين[2]. فما ظنّوه لحميّة، ليست سوى ممحاة ورْديّة. قدّها العِفريتُ الأبْخر[3]، ودسّها عميقًا في المنْخر. فتَراكم خلفَها المخاط، بعدما سُدّ في وجهِه الصّراط. وتنادَت له الميكروبات، وحْدانًا وزرافات.

وهكذا زالت المُلمّة، وانفرجَت عن النّاظر الغُمّة. فلا لحميّة ولا عمليّة، ولا لزوم للجمعيّة. ثمّ زدْته من الوفاء قيراطيْن، وزوّدتُه مجّانًا بدواء من صنفيْن. ولمّا بدا له أن يُمانع، قلتُ يا سيّدي جميلك كالشّمس ساطع. فلا كنّا ولا المرْءُ كان، إنْ خلَا من الوفاء والإحسان. فالوفاء للعين قُرّة، وللقلب قُوّة. والمرْء مثل الشّجَر، وإحسانه هو الثّمَر. وما رددتُ من معروفك قدْر بُرَّة[4]، ولا حتى قدْر ذَرَّة. فعَلا وجهَه الفرَح، واستشاط من المرَح. بل لم يدْرِ ما يقول، بعدما بدا عليه الذّهول. ولو ملك نفسَه لقال: كَمْ لله من خَوارق، في الكون والخلائق. وكَمْ مِن عوارض نظنّ فيها التّباب[5]، وإذْ بها هيِّنةً تمرّ مَرّ السّحاب.. وصدق الله العظيم إذْ يقول: «إنّ ربِّي لطيفٌ لِما يشاء إنّه هو العليم الحكيم» يوسف ١٠٠

(١) الجفت: آلة جراحيّة ذات ساقين للنزع أو الالتقاط.

(٢) ثخين: غليظ سميك.

(٣) الأبْخر: ذو رائحةٍ كريهةٍ بالفم، وهذا يحدث مع التهاب الجيوب الأنفية.

(٤) بُرَّة: حبّة من قمح أو حنطة.

(٥) التّباب: الخسران والهلاك.

المقامةُ السّادسة عشرة

وتُعرف بالكُرَويَّة[1]

(١) عليها– وقبل تنقيحها- علّق الأديب القدير صلاح المكاوي صاحب (مقامات المكّاوي) قائلًا: « اللغة قويّة والصنعة اللفظية رائعة وتسلسل الأحداث جذاب، والقصة أساسُ المقامة قائمة، ولم تخلُ من الطّرف والظّرف والملح وهو الأساس، والمقامة في مجملها أكثر من رائعة»، ثم أكّد على ضرورة استيفاء السّجع بين كلّ جملتين باتفاق الحرفين الأخيرين.

حدّثنا أبْقراط بن قحطان، قال:

حَلَم أبي حُلْمًا ورديّا، رآني فيه نجمًا كُرَويّا. أحْترف فيما وراء البحار، وأجْني المال بالقِنْطار. باسمي تهتفُ الجماهيرُ في الملاعب، وبزيّي يَتزيّا الشّبابُ والكواعب[1]. بآرائي في الحياة يُحتَفَى، وقبل العلماء والمفكّرين أُقدَّم وأُصْطَفَى. الجدرانُ بصُوَري تتغنّى، والشّاشاتُ لاستضافتي تتمنّى. وِسادتي محشوّة بالدّولارات، وتتغزّل في جمالي الحَسْناوات.

(١) الكواعب: الفتيات الناهدات.

ومع أنّه سلَك لتحقيق حلمه كلّ الدروب، ونهَج في سبيله ألْف أسلوب. فاشترى لي (الأديداس) مِن الكُرات، والرياضيّة من المجلّات. ولم يَضنّ بتذاكرِ المباريات، ولا بلاقِط القنوات. لأتابع من خلاله (مِيسِّي) والرّيال، و(صلاح) الفنّان والأرسنال. إلّا أنّي خيَّبتُ ظنّه وأمَله، وأجهضتُ حلمَه وعمَله. إذْ كنتُ من أبناء المِداد، أعكف على الكُتب حتّى في الأعياد. وأصْحبها صحْبة القلم للكتاب، والأذكار للمحْراب. فتفوّقتُ على اللِّدُون واللِّدَات[1]، وحزتُ أعلى الدرجات. فمَن جدّ وجد، ومَن زرعَ حصد. ثمّ اخترتُ أنْ أكون حكيما، أداوي مريضًا وأواسي سقيما. فنفض منّي اليديْن، وغادر الدّنيا بخُفَّي حُنيْن. بعدما توقّف منه الخافِق[2]، وصعدَ إلى جوار الخالِق.

ولِتطمئنّ في الأَعالي روحُه، وتسمع حُور الفردوسِ بوحه. تصالحْتُ مع الماضي، وتخصّصتُ في الطبّ الرياضي. فالتحقْتُ بموجب عقْد، بفريق يُدعَى (الفهْد). في كلّ مباراة مُقيَّد، ولدَكّة البدلاء أتسيّد. أُزجِي الوقتَ في قراءة الطّبقات للشَّعراني[3]،

(١) اللِّدة: التِّرب، وهو الذي وُلد يوم ولادك، وتجمع على لِدات، ولدون.

(٢) الخافق: القلب.

(٣) الإمام الشعراني (٨٩٨-٧٩٣هـ)، عالم وفقيه ومحدّث ومتصوف، له كتاب الطبقات ومنه الطبقات الوسطى والصغرى والكبرى.

والمقامات للهمذاني. ولا أملّ الجاحظ في البيان والتّبيين، ولا الحاشية لابن عابدين. فما لي في الكرة عِير، ولا في اللّهْو نفير. وما أعرف سوى القراءةِ سلْوى، وغير الكِتاب مأْوى. بينما أسمعُ روح أبي، تلحّ في الدّعاء ولا تَنِي. أن يُصاب لاعبُهم المشْهور، حتّى أدلف وسطَ الجمهور. فيتلقّاني بالتّصفيق والصّفير، وتلاحقني الكاميرات بالتّصوير. وأحتلّ مِن الصّحف العناوين، وأشتهر كمايكل[١] وديفيد[٢] أُوين.. فكلّ إنسانٍ لنفسه يَتمنّى، إلّا الأب في ذلك يُستثنَى. وكلّ بني آدم بذاتِه مشغول، إلّا الأب بابنه حَفول[٣].

يقول أبقراط:

وفي يوم جامع، تتصاغرُ أمامه المَعامِع[٤]. احتشدَتِ الألوف، من شتّى الصِّنوف. رفْقة الجندي والغفير، والزّعيم والوزير. بغْية تشجيع الفريق، في مباراة وطيسُها حامٍ كالحريق. إذ ينتظرهم فيها الكأس، ولا مجال لليأس. وفي الوقت الذي عمَّتْهم نشْوة، غيَّبَت عن العقل الصّحْوة. هوَى لاعبُهم الأشْهر الأجْلَح[٥]، بينما للكرة

(١) مايكل أوين: لاعب كرة قدم إنجليزي شهير، لعب لنادي ما نشيستر يونايتد، وُلد في ١٩٧٩م

(٢) ديفيد أوين: طبيب وسياسي بريطاني، تولّى وزارة الخارجية البريطانية، وُلد في ١٩٣٨م

(٣) حَفول: مهتم، يُقال حفَل للأمر أي اعتنى واهتم به وأخذه بعين الاعتبار.

(٤) المَعامع: الحروب.

(٥) الأجلح: الذي انحسر شعرُه عن جانبي رأسه.

ينْطَح. فسقط على أمّ رأْسِه، وصرخَ مِن بأْسه. وعندها انطلقَتْ صافرة الحكَّام، معلنةً النّفير العام. فكتمَت الجماهيرُ الأنفاس، ودقّت في الكنائس الأجراس. ولم أدْرِ إلّا وهم يَهيطون[1]، ومِن الرّعب يلطمون ويزعقون. هلمّ إلينا يا طبيب، ملَك الموت منّا قريب. أنقِذْنا يا أبقراط، ولك في الجنّة قيراط. فهرْولْتُ وسطَ الحشود، بسرعةِ الفهود[2].أحمل حقيبتي الظَّهْريّة، كمستشفًى وصيدليّة.

وبينما حسِبْتُ اللاعبَ يمكرُ كمارادونا، ويُنادي في مزاد الكذب قائلًا: (ألا أُونا)[3]. لتلفيق ضربة جزاء، وتحقيق الفوز بدهاء. إذْ به في حالةٍ لها يُرثَى، تنشب بالذّاكرة ولا تُنسَى. ويَصدق فيّ قولُ الورَى، ليس مَن يسمع كمَن يرَى.حيث بدتْ شفتاه زرقاوَيْن كالبحيْرات، ووجهه باهتًا كالأموات. أمّا أطرافُه فباردةٌ كالثلج، ونبضُه ضعيفُ الخَلْج[4].. يا حنّان! لقد انزلقَ منه اللّسان، بعدما ارتخى عضلُه ولان. فغَلّق للهواء مَجْراه، وبات الحتفُ مَرْساه.

(١) يَهيطون: يُقال هاط فلان أي ضجّ وأَجلب.

(٢) يُعدّ الفهد أسرع حيوانات اليابسة، حيث يعدو بسرعة قصوى تبلغ نحو ١٢٠ كم/ ساعة.

(٣) ألا أونا: تعني واحد بالإيطالية، ويفتتح بها المزادات بقولهم: ألا أونا ألا دو ألا تري، أي واحد اثنين ثلاثة.

(٤) الخلْج: النبض، ويقال خلَج الشيءُ أي تحرّك واضطرب.

وفي هدوء الحُواة، مدَّدْته على قفاه. ثمّ بحركةٍ بهلوانيّة، غاية في الأهميّة. أمَلْتُ الرأسَ خلفًا إلى أقصاه، ودفعْتُ الذّقن إلى أقصى أعلاه. فعاد اللسان إلى مكانه بين الحنكَيْن، وانفتحَ مجرى الهواء على المصراعيْن. وما إن تدفّق الهواءُ إلى رئتيْه، ونبَض الفؤاد بين جنبيْه، وعادَ إكسيرُ الحياةُ إليه. حتّى التمَع للجمْع العيْنان، وزالَ عنهما الهَمَيان[١]. بينما سجد المدرّب مِن قُعود، ونطّ الزّعيم في مقصورته كالقرود.كما انقشع عن الجماهير الهُجوع[٢]، فهتفَت للزّعيم الزَّعزوع[٣]، واللاعب المَصروع[٤].

ولمّا اتّجهتُ صوبَ الجماهير الوفيّة، لأتلقَّى الامتنان والتحيّة. ولم أجد سوى الجفاء، بطريقة سمجاء. أيقنتُ أنّها بالعقل تُجدِّف[٥]، وأسيرةُ قدم تُهدِّف. أمّا العلم والأدَب، وقود كلّ أَرَب[٦]. فلا يبلغ عندهم وزْنَ قدم، ولا يساوي مبراة قلم! مع أنّ العلمَ شرَفٌ لا قَدْر له، والأدبَ مالٌ لا نِدّ له.

---

(١) الهَمَيان: البكاء، ويُقال همت العين أي صبَّت دموعَها.

(٢) الهُجوع: الصمت والسكون.

(٣) الزَّعزوع: النحيل، الهزيل الجسم.

(٤) المصروع: المطروح أرضًا.

(٥) تُجدِّف: تجحد، يُقال جدَّف بالنعمة أي كفر بها.

(٦) الأَرَب: البُغْية والأُمنيّة.

ولمّا لم يُعِرني أحدٌ الانتباه، وبِتُّ كمَن ضلّ السّبيل وتاه. جرجرْتُ أقدامي، على درْب آلامي. ومن الشّرود حسبني أحدُهم أعْمى، فتَسلّل مِن خلف المرْمى، واختطفَ الحقيبة ولِقلْبي أدْمَى! وعندها جفّ منّي الحلْقُ وتَشقَّق، وانقبضَ الصّدرُ وتَضيَّق. فقصدتُ أنبوبًا للماء، يسقون به النّجيلَ كلّ مساء. وشربْتُ منه حتّى ارتويْت، وسكبتُ على الرّأس حتى للرأي السّديد اهتديْت. إذ قرّرتُ الارتحال، عن هذا الابتذال[1]. والعودة إلى الطبّ الأصيل، في مداواة العليل. ومنازلة الأدواء، وهزيمة الأوْباء. وليرْحم الله أبي، ويفرّج ما بي.

يقول ابنُ قحطان:

وكُرةُ القدم يا خِلّان، قديمةٌ قِدم الزمان. لعِبها الفراعنةُ والصينيّون، والرّومان والأوروبيّون. قبل أن يُقعِّد لها القواعد، الإنجليزُ الأباعِد، في القرنِ قبل البائد. وهي دُمْية هوائيّة، في الشّكل كُرويّة. تُصنع مِن جلدٍ مطّاط، أملس كالبلاط. كالحجر صمّاء، لا يتسرّب إليها الماء. وزْنها بمئات الجرامات أربع، وسطحها مرقَّط مبقَّع. واعْجَب أنْ كانت لعبةً للدَّهماء، لا تليق بالنُّبلاء! وصدَر في حقّها المراسيم، بالمنْع والتحريم! قبل أن تَلعب بالرؤوس، وتدور

(١) الابتذال: السطحيّة والخلوّ من السموّ والمثاليّة.

بها كالتّروس. حتّى فاقَت الأفيون في الإدمان، وغيَّبت عقول الشبّان والفِتْيان. فمِن متْعةٍ وهواية، إلى وظيفةٍ وغواية! ومِن رياضةٍ تدْرأ الأكدار، إلى تجارةٍ تجلب الأضرار. لها تاجر كالعقار، ووكيلٌ وسمسار! ابتلعَت المليارات، واستنْزفَت الأوقات، وأجَّجت الخلافات. فتَناحر في ساحها الملوك، وكذا كلّ صعلوك. ودقَّت بين الإخوان إسْفينا، وجعلَت الجيرانَ عِزينا[1]. وليتَها اقتصرَت على الشباب، ذوي اللِّحى والأشْناب. ولكنّ النّساء ارتدْن ميدانَها، فتكَشَّفْنَ واحْترفْنَ لعبَها. مزاحِمين الرّجال حتّى في الكُرة، وتلك قِسمة لَعَمْري جائرة!

فافْقه يا رعاكَ الله، وكُنْ لذلك من الدّعاة. فزَيْنُ الناس مَن تَفطَّن، وتَبيَّن وتَيقَّن. وشَيْنُهم مَن حاد، عن الهُدى والرَّشاد. فانتصَر للكرة والقدَم، على حساب العِلم والقِيَم! وليتك عنّي تُذيع، هذا النظْم[2] البديع:

«أرأيتَ أشهر عندنا مِن لاعبي كرةِ القدم
أهُم أشدّ توهُّجًا أمْ نار برْقٍ في علَم؟!
لهمُ الجبايةُ والعطاءُ بلا حدودٍ والكَرَم

(١) عِزين: متفرّقين.

(٢) الشاعر السّوري وليد قصّاب (١٩٤٩-)، قصيدة (كرة القدم)، من ديوان (صور من بلادي).

لهمُ المزايا والهِبات وما تجود به الهِمم
وكرة القدم..
الناس تسهر عندها مبهورةً حتى الصباح
وإذا دعا داعي الجهادِ وقال حيّ على الفلاح
غطّ الجميع بنومهم.. فوزُ الفريق هو الفلاح!
فوز الفريق هو السبيلُ إلى الحضارة والصلاح!»

المقامةُ السّابعة عشرة

وتُعرَف بالسِّمْنيّة

أخبرَنا أبُقراط بن قحطان، قال:

كان لي جارٌ نَحيف، كعودِ قصبٍ جَفيف[1]. خَصْره لا يُقاس بمِتر، بل يكفيه الشِّبر والفِتر. ومن جلده نتَأ العرقوب[2]، وبرزَت الشَّظيَّة والظُّنبوب[3]. كادَ من النّحول أن يُرى بالميكروسكوب، أو كالهلال بالتِّلسكوب. وأوْشك على الأرض يطيح، لو هبَّت عليه الرّيح. تُسبِّح بحمْد خفّته المعارجُ والمَراقِد، وتشتاق جِلْستَه الأرائكُ والمَقاعِد.

(١) جفيف: يابس جاف.

(٢) العرقوب: وتر غليظ فوق العَقِب، والجمع عراقيب، وفي الحديث: ويل للعراقيب....

(٣) الظُّنبوب: عظمة الساق الداخليّة، أما الشّظيّة فهي العظمة الخارجيّة.

وبعد افتراقٍ ووداع، طال حتّى ماع، أذِن القدَر بالاجتماع. إذ لا بدّ لكلّ غائبٍ من رجْعة، كما لكلّ مسافرٍ من لوْعة. فهالني منظرُه، وساءني مظهرُه. إذْ صار من شحامته أسطوانيًّا كبرميل، وفي مشْيته يخطو كالفِيل، وكالبطريق يعرج ويميل! أمّا ظِلُّه فيملأ الشّارع، مع أنّ طولَه ليس بفارع. وكِرشُه أمامه عظيم كالجبَل، وأرادفُه خلفه بارزة كسَنام الجمَل.

للوهْلة الأُولى ما عرفْتُه، ولا من الثّانية تَبيّنْتُه. حتى ناداني بلهفة: أبقراط الأمين، أقْبِل ولا تخَف إنّك من الآمِنين. فقلت: ماذا دهاك يا جاري، بُح بسرّك الذي تُداري! أمَريضٌ بداء، أمْ آثارُ دواء؟ أمْ تُراك حامل، وتاسعك كامل؟! فضحكَ وتَرجْرج، واهتزّ كالهوْدج. وقال: سمِّ الله الواجِد، ومجِّد الربَّ الماجِد. ولا تكنْ كالغائر الحاسِد، صاحب الضمير الفاسد. بل هو عِزٌّ ونِعْمة، بعد بؤس ونِقمة. وأيْدٌ ولياقة، تنْضح بالطاقة. ورَبُّ العباد إذا وهَب، لا تسألنّ عن السّبب.. ألَا تَرى الكلّ منّي يَهاب، ويُوقّرون لي الجَناب. قلت: دعْ عنكَ هذا الهراء، وفكِّر بالعقْل لا بالحذاء. بل مِن هيْئتك يسخرون، ومِن مِشيتك يَهزؤون، ومِن عَرَقك يفرّون.. ادْلف معي يا جار، إلى العيادة في الجوار. فكما في الإعادة إفادة، فإنّ في العيادة ألف إفادة.

يقول ابنُ قحطان:

وبعد أنْ عرَج السلّمَ حبْوًا وقسْرا، وجاوز البابَ دفْعًا وحشْرا. أصعدْته العَدّاد، ويُمناي على الفؤاد. فصرخ المؤشّرُ وكشّر، وباللون الأحمر أَشّر. مائة وأربعين تزيد، ليْته ذبيحةً للعيد! ثمّ للطُّول بالمِتر قسْت، ومعدّل الكتلة[1] حسبْت. فجاوز الأربعين، بما يعني أنّه جِدُّ سمين!

ولمّا أشفقتُ على المقعد من الهيْض، أجلسْته كالمذنب على الأرْض. وقلت: أغْلِق ما بين فكَّيْك، وافتحْ جيِّدا عينيْك. واسمعْني وإيّاك والسهْو، فالأمر جَدّ لا لهْو. السِّمنة أمّ كلّ داء، وهي بين النّاس وباء. داء السكّري ستُهديك، وارتفاع الضّغط تُسديك. وأمراض القلب ترافقك، والسكتة الدّماغية تلاحقك. علاوة على السّرطان والاكتئاب، والنِّقرس وعدم الإنجاب. ولا تَنس آلامَ الظّهر والحصوات المراريّة، والتهاب المفاصل والشَّحامة[2] وتصلُّب الأوعية الدمويّة. وكأنّ البدانة للموت أجراس، وللأمراض أفراحٌ وأعراس.. أليس في قلبك رحمة، يا أشْحم مِن فُقمة! قال: وما

---

(١) معدل الكتلة: أشهر مقياس لتشخيص السمنة، وفيه يقسَّم الوزن بالكيلوجرام على مربّع الطول بالمتر.

(٢) الشَّحامة: زيادة نسبة الدهون في الجسم.

العملُ يا طبيب؟ دُلَّني وأنا عبْدك المُجيب. سمعْتُ عن عقاقير تداوي اللّحيم، وجراحةٍ تُدعى التّكميم. وأنا بكلّ ذلك زعيم[١]، وجاهز لدفعِ كلّ ملّيم. ولكنْ لي سُؤْل وحيد، عليه لا أزيد. خَلِّ عنِّي التمارين، فأنا كما ترى كالسّفين. أفخاذي تتسلّخ بالمشْي، فما بالك بالجرْي! وأَنهج مِن ضرْب البَمّ[٢]، فما بالك بالسّباحة في اليَمّ! قلت: أغْلَب الأسقام، من فضول الطّعام. والبِطْنة أصْل البَلِيّة، ودعني أفصّل في القضيّة. فبعض العبارات أقلّ من سطْر، وفي طيّاتها من المعاني بحْر!

وبعدما طلبَ الزّيادة، تابعتُ بالقول الإفادة.. الاقتصادُ في الطعام، سلامةٌ للأجسام. فاكْتفِ منه بالحاجة، ولا تَحُم حول الثلّاجة. وصغِّر له حجمَ وعائك، واملأ به ثلثَ أمعائك. فما أرْداك في سنوات الغُربة الخمْسة، سوى هبْش المنْسف[٣] والكَبْسة[٤]. وكبْش البلاليط[٥] والخَبيصة، وكذا الهَريس والكُبَيْبة. ومنذ التوّ: لا (ميراندا) ولا (بِيبسِي)، ولا حلواء حين تُصبح وتُمسِي. والْزَم

(١) زعيم: كفيل.

(٢) البَمّ: أغلظ وتر في العود الموسيقي.

(٣) المَنسَف: طبق أردني شهير يطبخ في المناسبات من لحوم الضأن.

(٤) الكبسة: طبق خليجي شهير من الأرز مع اللحم أو الدجاج.

(٥) البلاليط: طبق شعبي خليجي للتحلية.

الخسّ والخيار والجزَر، والفراولة والكِيوي لا حَذَر. ولا تنزعْ عن الفاكهة القُشور، ففي أكلها صحّة وحبور، وفي قرْبها بعدٌ عن القبور. وتَذكَّر يا هذا زيتَ الزّيتون، فهو أطْيب ما يكون. ولا تَقرَب الطّعامَ إلّا مع عضّة الجوع، وفارِقْه وأنتَ به وَلوع. وتَأنّ في المضْغ والقضْم، فإنه أفْيد للهضْم. ولا تُدخِل الغذاءَ على الغذاء، فتتكالب عليك الأدواء. وباعِد بين الوجبة والوجبة، تَسلَم بإذن الله من كلّ نكْبة. وأكثِر من شرب الماء، فإنه خيرُ دواء، وليكن ثلاثة لترات أو زُهاء. وتَحَلّ بالإرادة والعزيمة، فدونها الهزيمة. واعتذِر بلُطف عن كلّ عَزومة، فكَم مِن عَزومة جرّت خصومة. ثمّ غَيِّب عن ناظري تسعةَ شهور، أراك بعدها أرْشَق من عصفور. قال: أخشى أنْ أتلاشى كالدَّخَن والبُخار، وأسيح كالزُّبد على الوَقَد[1] والنّار. قلت: ليت هذا يكون، فيستريح منك الكون.

⏮ يقول أبقراط:

وفي الموعد المضروب، تَحقّق المطلوب. فزارَه الهُزال، وصار كالغَزال. وبدا كشمسٍ مُسفِرة، ضاحكةٍ مستبشِرة. وكأنّ البدانةَ شيخوخةٌ وندامة، وفراقها فتوّة وسلامة. فما كان منّي إلّا أن حفّزْتُه، ولوجه الله نصحْتُه. وحذّرْتُه حليمة، وعادتها القديمة.

(١) الوَقَد: اتّقاد النار.

فأكّد الوعْد، بالسّيْر على العهْد.

ثمّ تَذاكرْنا كيف أنّ العقل السليم، في الجسم السليم. وكيف أنّ الصحّة أمانة، وهدْرها خيانة. وكيف أنّ الحركةَ برَكةٌ وسعادة، والكسلَ درَكةٌ وبَلادة. وختمْنا بأنْ عطَّرْنا المَباسِم، بقول أبي القاسم[1]: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه، بحسْب ابن آدم لقيماتٍ يُقمن صلْبه، فإن كان ولا بدّ فاعلًا؛ فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنفَسه». وما افترقْنا إلى الشّارع، إلّا بعد أن ردَّدْنا قولَ الشّاعر:

«يـا ويْـحَ أجسـامُ الأنـامِ وما تَـطيـقُ مـنَ الأذى
خُـلِـقَـت لِـتَـقْـوَى بالغذاءِ وسُـقْـمـهـا ذاك الـغِـذا»

***

(١) أبي القاسم: صلى الله عليه وسلّم.

المقامةُ الثّامنة عشرة

وتُعرَف بالامتحانِيّة

حدّثنا أبقراط بن قحطان، قال:

بعدما بِتُّ في الطبّ كالحيران، أتقلّب من امتحانٍ إلى امتحان. وصلتُ لاختبارٍ نهائي، يُعقدُ في ظرفٍ استثنائي. إذْ كان عليّ كطالبٍ مخضرَم، أن أهجمَ على المريض كجيشٍ عرَمْرم. فأُغرِقه بالسّؤال كمحقِّق، وأدوّن في الكرّاس كمدقِّق. مستفسرًا عن المغْص والسُّخونة، والإسهال والعفونة. والقيء والإمساك، والخَـدَر[1] والحكاك. وسيَلان الأنف والعطْس، والدُّوار وألم الرأْس. وكذا اندفاع البول وحرْقته، وانتظام النبض وسرْعته. ومستجوبًا إيّاه كذلك عن صحّة أبيه وجدّه، وعلاقته الخاصّة مع زوجه أُمّ ولده. وعمّا يشرب ويطهو، ومتى يلعب ويلهو؟

(١) الخَدَر: التعب الشديد.

ثمّ أقيس الطّول بالمِتر، والحرارة بالتّرمومتر. وأنزع عنه الأسمال، وأتفقّد الأوصال[1]، وأتحسّس الكبد والطّحال. وأجسّ بالسمّاعة القلبَ والرئتيْن، وأدقّ بالمطرقة الكعبيْن والركبتيْن. قبل أن أمرّ على الجلد والأعصاب، بحثًا عمّا يَعتريها مِن أوْصاب. وهكذا أقلّب المريضَ ظهرًا لبطْن، ولا أترك له عضوًا دون طعْن. حتّى يضجر منّي ويَسبّ، ويتمنّى لو لم على الأرض يَدبّ. ويُوشك أن يتفُل ويلعَن، وإلى القفار يظعَن! وفي هذا لا وزر عليّ ولا مَلامة، فهو سبيلي للحصول على كامل العَلامة، من المُمتحِن الفهّامة العَلّامة.

وفي يوم الامتحان، حيث يُكرمُ المرء أو يُهان. بكَّرتُ كعادتي، ورتَّبتُ حقيبتي. ثمّ راجعتُ الكِتاب، وهنْدمتُ الثّياب. ولليديْن رفعْت، وبالدّعاء شفعْت. «اللّهمّ لا سهْل إلّا ما جعلتَه سهْلًا، وأنتَ تجعل الحَزن إذا شئتَ سهْلًا». فكان من نصيبي شيخٌ كبير، مستوْفِزٌ كالقنفذ على السّرير. سحْنتُه تُسيل الدّموع، وتَفتك بالضّلوع. ما إن رآني حتى بادر بالزّفير، واجترّ كالبعير! ولمّا ألقيتُ عليه السّلام، ضنّ بالكلام. فشرعْتُ أستعْطفه، مع أنّي لم أستلْطفه. إلى أنْ ردّ في غير بحْبحَة[2]، و بفحيحٍ ما أقبحَه! على رِسلك يا ذا

(١) الأوصال: المفاصل.

(٢) البحبحة: التوسّع والسماحة.

الطِّمرَيْن[١]، عليك أوّلًا بالنّقدَيْن. ادْفع تُكرَم، وإلّا تُهان وتُحرَم. قلت: ماذا أدفع يا ميّت الأحياء، أتحسبني أميرَ الأمراء، أم تراني بنكًا للفقراء؟ قال: يومُك أغبر مِن إثْمد[٢]، وحظّك عاثرٌ أرْمد. عجِّل بالدولار يا تلميذ، ولا مانع مِن الإبريز[٣]. قلتُ: أين أنا من الدولار، ونحن لا نجد السّولار. ثمّ ما هذا الإبريز، أهو بخلاف الإفريز[٤]؟! قال: ولم دخلْتَ الطبّ أيّها الزعزوع[٥]، أتطمح أن تكون بَخْتَيَشُوع[٦]؟!

ومازلنا في عراكٍ وجدال، ومُلاحاة وسجال. حتى دقّ للوقت الناقوس، حسْبما يقضي النّاموس. فنلتُ الصّفرَ بجدارة، وكدتُ أُرجَم بالحجارة. وبتّ أبْأَس ممّن ضاعت لحاه، بين حاناه وماناه[٧]. فدعوتُ دعوةَ محزون، أنْ يَخسف الله به كقارون. وسألتُه سبحانه القبول، فلا أكْرم منه مسئول.

---

(١) الطّمرين: ثوبيْن رديئيْن أحدهما للنصف العلوي من الجسم والآخَر للنصف السفلي

(٢) إثْمِد: حجر يُتّخَذ منه الكحل.

(٣) الإبريز: الذهب الخالص.

(٤) الإفريز: ما أشرف من الحائط خارجًا عن البناء، ويعرف بالبلكونة.

(٥) زعزوع: نحيل، هزيل الجسم.

(٦) بختيشوع: جبرائيل بن بختيشوع، كبير أطباء الدولة العباسية، والطبيب الخاص لعدد من خلفائها ومنهم الخليفة المأمون.

(٧) إشارة إلى المثل الشهير ذو القصة الطريفة: وهكذا ضاعت لحانا، بين حانا ومانا.

يقول ابنُ قحطان:

ولمّا لمحتُ الأترابَ في مرَح، وكادوا يرقصون من الفرَح. بينما أنا في كمَدي أرسُف، ومن قهْري أنزِف! سألْتُ واستفْسرْت، وليتني ما سألْت! إذْ تبيّن أنّنا أغرار، وقعْنا في قبضة تجّار، بل قلْ شطّار[1]. خبروا أدْواءهم غيرَ الأليفة، واتّخذوها مهنةً ووظيفة. فالامتحان لهم غنيمة، والطلّاب بين أيديهم وليمة. يفرضون عليهم الإتاوات، كفُتوّات الحارات. فرْضًا ليس فيه نقْض، ولا مجال لرفْض. تتلقّى بعدها التشخيص جاهزا، والعلاج حاضرا، والنّجاح باهرا. وهُم في أمراضهم المُؤبَّدة، لا يَحُسّون بمَوْجِدة[2]. فهي لهم بيْضةٌ مِن تِبر، تفوق النّفط في البئر. أحدهم بالرّئة مسلول، أو بالقلب والتّامور[3]معلول. والآخَر مريض بالكبد واليرَقان، أو الرّبْو والخفَقان. وغيرهم بالسكّري والـدراق[4]، والعَمْلقة والبهاق، أو مِن الفالج مُعاق.

وهكذا للدرْس وعيْت، وعن الرِّيح تنحّيْت. وذلك بعدما حال الحوْل، ومَنّ الله بالطّوْل. فصافحْتُ المريضَ باحترام، وقبّلتُ يدَه بإكرام. ومنحتُه الجَمَل، بما حوَى وحَمل. ولمّا طلب الساعةَ منحْتُه، وأشار

(١) الشّاطر: الخبيث الماكر، وتُجمَع على شاطرون وشطّار.

(٢) مَوْجِدة: غضب وكُره.

(٣) التّامور: كيس رقيق الجدران يحيط بالقلب.

(٤) الدُّراق: تضخم الغدة الدرقيّة.

إلى الخاتَم قلّدْتُه، وغمز إلى النظّارة وهبْتُه. ومِن جانبي عرضتُ عليه الحذاء، فقبله باستياء. مع أنّ قدمه المفلطَحة، كعربة مصفَّحة! وفي خاتمة المطاف، طلب منّي الزّفاف، على ابنته ذات الصّون والعفاف! بعدما ذكر أنّها (لهْلوبة)، تجيد عملَ (المقلوبة)[1]. ولكي يزيد في إغرائي، دسّ يده في جيبه الأمامي، وأخرج هاتفه (الهَواوي). ثمّ شرَع الإنستجرام، وأشَّر على صورتها بابتسام. فقلت: يا لها من جميلة، كبنتِ رزقٍ أمينة، ويا لها من رشيقة القوام، كالفيل والضّرغام! فانبسَط وانشرَح، وبالمطلوب باح وسمَح. فأجبْتُ وأجدْت، وعلى مستقبلي اطمأننْت.

يقول أبقراط:

ولمّا بالرّحيل همْت، وشطْر الباب يَمّمْت. ناداني فلبّيْت، ويا ويْلي إن أبَيْت. فأقسَم بكلّ جاه، إنْ تزوّجْتُ الفتاة، أنْ يمنحني الدكتوراه! فقلت: والزّمالة؟ أمْ فيها استحالة؟ فوكزني بالكوع، وقال: ليس لنا فيها فروع. فقلت: اسمحْ لي بالفراق، أحُسّ بالاختناق. قال: إلى أين المَساق؟ قلت: إلى أبعدِ آفاق، في بلاد الواق واق[2].. ثمّ تأوّهت وتنهّدت، وبقولَ الشاعر أنشدت:

«وإنْ رُمتَ عن دار المَذلّة رحلةً فسِر قبل أن تنسدَّ في وجهك الطُّرقُ»

***

(١) المقلوبة: طبق شامي شهير، من الأرز والخضراوات واللحم أو الدجاج.

(٢) بلاد الواق واق: مصطلح شهير للدلالة على البلاد النائية المجهولة.

المقامةُ التّاسعة عشرة

وتُعرَف بالحَفْليّة[1]

(١) تعليقًا على المقامة الحفْليّة إبّان نشرها في صحيفة المثقّف بتاريخ ٢٩ يونيو ٢٠١٩م، كتب الناقد العراقي القدير (جمعة عبد الله) قائلًا: سرْد مقاميّ ناضج يحمل التراجيديا الكوميدية. ومقامة متمكّنة في صياغتها وأسلوب طرحها، لِما تحمله من رؤية تعبيرية دالة في المعنى والمغزى، ومن السخرية والانتقاد اللاذع لمفاهيم الواقع المتسلّط المفروض.

أخبرنا أبُقراط بن قحطان، قال:

في مدينة المنصورة، بعوْن الله منصورة. وعلى ضفاف النّيل الشاسع، حيث أُسِر لويس التاسع[1]. في سابع حملةٍ صليبيّة، على الدّيار المصريّة.. أُسِرْتُ في الطبّ سبع سنين، إلى أنْ منّ الله بفتح مبين. فقلتُ كما يقول الصّائمون التُّقاة: ذهب الظمأ وابتلّت العروق وثبَت الأجرُ إن شاء الله، وردّدتُ وِرد المحرَّرين مِن سجن الطّغاة: ذهب الأسْر وبقي الأجْر إن شاء الله.

(١) الملك الفرنسي لويس التاسع (١٢١٤-١٢٧٠م)، قاد الحملة الصليبية عام ١٢٤٨م، وهُزم وأُسِر في المنصورة عام ١٢٥٠م.

وكما هو معروف، لا بدّ من حفلٍ وضيوف. يُضرب له يومٌ معلوم، ببرنامج مرسوم. ويُدعى المقرَّبون، فلا يَستقْدمون ولا يَستأْخِرون. إذ يُزفّ فيه الخِرّيج زفَّ العريس، ويُعمَّد تعميد الطفل في الكَنيس.

ولمّا دنا اليومُ الموعود، وأنا عنه لاهٍ شَرود. إذْ بالهاتف يجلْجِل، وصوت صديقي يصلْصِل. أنتَ هناك في الوادي، وهنا السّوق ينادي! راحة الأجسام، تبدأ من الأقدام. فهلمّ إلى نعالِ، إيطالية الأشكال. وعن البِذلة لا تَسَل، بريطانيا هي المثَل. وربْطة العنق الرقيقة، فرنسيّة أنيقة. والساعة السّويسريّة، أُوميجا هي القويّة. قلت: ولِم كلّ هذا أيّها المخبول؟ قال: والله إنّك لبُهلول، لا تفهم (البروتوكول). للحفل يا هذا زيّ رسميّ، فلا تكنْ كالبدويّ. قلت: وبكَم ذاك يا حضَريّ، طبقًا لعَرضك المُغري؟ قال: سبعة آلاف لا تَزيد، وهو كما ترى سعرٌ زهيد.

هممتُ بالصّياح والعويل، ونطْح الرّأس بالبرميل. ولولا أنّي للشّرع هيّاب، لَلطمْتُ الخدود وشققْتُ الثّياب[1]. ثمّ قلتُ هازِلًا غير جادّ، اسمح لي بسؤال حادّ. بخصوص الجوارب والسّراويل، إلى أيّ الدول

(١) الحديث: «ليس منّا مَن ضرب الخدود، او شقّ الجيوب، أو دعا بدعوى الجاهليّة» أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين.

تُحيل؟ قال: الهند بلا بديل. ودعْك مِن عقيم الجدَل، فالإيمان قولٌ وعمَل لا قولٌ وجدَل. فحسْبنْتُ وحوْقلْت[1] واستغْفرْت، وفي نفْسي كيعقوب أَضمرْت. أنْ أعتزلهم وما إليه يدْعون، وأدَعهم في غيّهم يعمهون.. فجوْدة تغليف البضاعة، لا تشفع لرداءة الصّناعة. وليس كلّ ما يلمع ذهبا، ولا كلّ ما يلسعُ لهبا. ويبقى المجْد دوْمًا للبسطاء، هُم حقًّا السّعداء. بينما الويْل للمبذِّرين، إخوان الشياطين.

وفي فجر يوم الفرَح، وقبل أنْ يَلوح الوضَح[2]. بَكَّر ساكِنةُ المدينة، وتَنادَوْا ليوم الزِّينة. كما تَأنّق كلُّ خرِّيج حصيف، وبدا كعُمر الشّريف[3]. أمّا أنا فغلّقتُ بابي، ويعلمُ اللهُ ما بي! وعلى وقْع جلَبةٍ ولغَط، تُوحِي بثَمّة غلَط. قمتُ فزِعًا للباب، خشْية دهْم الأعتاب[4]. وإذْ بي أمام مَن؟ خِمِّن وأَمعِن الظنّ؟ رهطٌ مِن الأهْل والأنساب، ظعنوا من النّجْع على الدوابّ، ليشهدوا حفلَ ابنهم الشابّ. بعد أن هاتَفهم الصّديق الصَّدوق، ودعاهم ضمنَ وفدٍ مرموق. ثمّ حثّهم على التّبكير قدْر الإمكان، قبل أن

(١) فحسْبنْتُ، وحوْقلْت: أي قلت حسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

(٢) الوَضَح: بياض الصبح.

(٣) عمر الشريف: ممثل مصري، اسمه الأصلي ميشيل ديمتري شلهوب، تُوفّي عام ٢٠١٥م متأثرًا بإصابته بمرض ألزهايمر.

(٤) الأعتاب: جمع عتبة، وهي خشبة الباب التي يُوطَأ عليها.

يغصّ بالأقدام المكان. قلتُ: يا لها مِن نائبة، هبّت كحاصِبة[١]! ولم تكن في الحسْبان، ولا ضمنَ الميزان. والفضل لدعابةِ زمالة، جاءت ضغثًا على إبّالة[٢]! ثمّ رُغتُ إلى الخلّان، كالغريق وسط الطّوفان. أشحذ مِن هذا القميصَ والبنطال، ومن ذاك الحذاءَ والسّروال. وكَم كانوا كالأشْرار، حين عرضوا (السِّشوار)! فصلْعتي بادية، كبدْرٍ وسْط داجية[٣]! وهكذا تدبّرتُ هيئتي، حتى لا تُفتضَح جماعتي. وكما قال الشاعر:

«لَعَمْري لَرهطُ المرءِ خيرُ بقيّةٍ عليه وإن عالُوا به كلَّ مَركَبِ»[٤]

يقول أبُقراط:

وبينما نسير سويّة، نتطارح السّلام والتحيّة. حاصروني كالسّوار، وحدَبوا عليّ كالصِّغار. فمسحَت أُمّي الرأس، وأعاذتْني من كلّ بأس. وطوّق عمّي كتفِي، وبادر بالْتقاط (سِلْفِي). وطبع أبي قبلةً على خدّي، وتَمنّى لو حضرَ جدّي. ولوْلا أنّي رفضتُ الانسياق، لحملوني على الأعناق، وساروا وسط الأجواق[٥]. ثمّ هتفوا في كلّ صراط، بالرّوح بالدّم نفديك يا أُبُقراط!

(١) حاصبة: عاصفة شديدة محمَّلة بالحصباء.

(٢) ضِغثًا على إبّالة: أي بليّة على أخرى. والضِّغث: قبضة من حشيش، بينما الإبّالة حُزمة من حطب.

(٣) الدّاجية: الظُّلمة.

(٤) معنى البيت: وبقائي، لَعترة الرجُل أحسن إبقاء عليه، وأكثر حشمة له، وإن أركبوه مراكبَ صعبة مكروهة، وأنزلوه منازلَ حزنة مذمومة.

(٥) أجواق: جمع جوْق، وهو الجماعة من الناس، وكلّ خليط من الناس أمرهم واحد.

وما إن بلغْنا مَرْبَع الاحتفاليّة، حتى فرّقتْنا اللّجان النظاميّة. فاحتلّ علْية القوم المقاعد الأماميّة، وبقيّة المدعوّين الخلفيّة. بينما قلّدونا الوشاح، وصفّونا كالألواح. وأمرونا بالمضيّ، في نظام ورُقيّ. إلى مقاعدنا المَنضودة، حسْب درجاتنا المرصودة. وما إن اقتعدتُّ موضعي، كطبيبٍ ألمعيّ. بلغ في المجدِ الشُّرَف[1]، وحاز مرتبة الشَّرَف. حتى اشرأبّت صوبي الأعناق، وشخصَتِ الأحداق. ونُوديتُ بصوتٍ جهير، ملْؤه الاحترام والتوقير. أن احْضر فورًا إزاء النّقيب، لتلقين الخرِّيجين قَسَم الطبيب. فسال منّي النّضْح[2]، وراودَني الرَّنْح[3]. بل كدتُ يُغمَى عليّ، لولا نعمة العَليّ. فشرعْتُ أتلوه بحُرقة، ويُعيده الخرِّيجون فِرقة بلا فُرقة[4]. تُؤازرنا الموسيقى العسكريّة، كأنّنا في موقعة حربيّة. حتى تشقَّقت من حناجرنا السقوف، والتهبَتْ من التّصفيق الكفوف.

يقول ابنُ قحطان:

وبعدما صافحْنا الأعيان، ما بين فُلان وعلّان[5]. وتَحصَّلنا منهم على الشّهادات، والدّروع والأُعْطيات. انفضّ الجمهور، وتَعالت

(١) الشُّرف: جمع شُرْفة، وهي أعلى الشيء.

(٢) النَّضْح: العرَق.

(٣) الرَّنْح: الدُّوار.

(٤) الفُرقة: الافتراق، بينما الفِرقة: هي الجماعة.

(٥) فلان: هو الشخص المبهم، وعلّان: هو الشخص المعلوم. وعند قولنا: فلان وعلّان: أي المجهول والمعلوم من القوم.

أصواتُ ضيوفي الحضور. أين لحمُ البعير، فهوَ لدينا الأثير؟! وأين المرق والثّريد، والطّيرَ من كلّ جنسٍ نريد؟! أنغْدو بِطانا، ونرُوح خِماصا؟! أهذا حفلٌ وهناء، أم مأتَمٌ وعزاء؟! ففهمتُ ما إليه يرْمون، ورجوْتهم الهدوء والسّكون. فكَفُّوا عنِ الهرَج والمرَج، بعدما بُشِّروا بالفرَج. ثمّ دلفتُ بهم إلى مطعمٍ قريب، وقلت: انتَقُوا ما يَلذّ لكم ويَطيب. فالكرم والجُود، ميراثُ الجدود. منذُ الطائيّ حاتم، إلى سيّد بني هاشم[1]. ومَن باعوا ثيابَهم لتعليمي وتوفير ما يكفيني، أَبِع لهم جلدي وأراه قليلًا لا يُرضيني. وبدلًا من تَناوُل الفول والطعميّة، والعرقسوس والمهلّبيّة. إذْ بهم يطلبون الدجاج مشْويّا! واللّحم كبابًا حَلَبيّا! ويشترطون السّلَطة فاكهة من كلّ الأنواع، والشّاي ثقيلًا بالنّعناع. وزجاجات الماء معدنيّة مُستورَدة، والعصائر طازجة باردة! فسال على الخدّ دمعي، بعدما استنفدْتُ كلّ قرش معي. ورهَن المطعمُ ساعتي، حتى أُوفِّي ثمنَ وليمتي. فوافقتُ غير نادم، وانصرفتُ طريدًا كخادم.

ولمّا كان إفلاسي معلومًا بين العباد، وصرتُ «لا أسْباد لي ولا ألْباد»[2]. احتلْتُ وقلْت: عليكم بالسّيْر، فهوَ للعافية خيْر. وما

(١) صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم.

(٢) لا أسْباد ولا ألْباد: مثَل يُضرَب لمن لا يملك شيئًا البتّة، فيقال: ما له سبَد ولا لبَد: أي ماله قليل ولا كثير. والسّبَد من الشَّعر، واللبَد من الصُّوف.

أَهلَك الأنام، إلّا ترْك المشْي على الأقدام. فقدَّروا نصْحي ونفّذوا، وتَناوبوا على رأسي وقبَّلوا. قبل أن يمضوا في رضا وسعادة، شاكرين فاره الوفادة. ووعدوا بتعليق اللّافتات، في عموم القرى والبَلْدات. حتى يعمّ اسمي الوجود، ويتخطّى الحدود، كنجوم بوليود وهوليود. وساعتها تلهجُ باسمي الـدُّروب، وأَشتهِر كمجدي بن يعقوب.

المقامةُ العشرون
وتُعرَف بالضَّرْسيّة

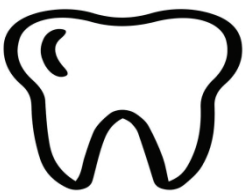

حكَى أبقراط بن قحطان، قال:

في ليلةٍ مُقمِرة، سماؤها زاهِرة. وهواؤها نسيم، يَأسُو[1] السّقيم. استضفْتُ الأهْل، من الطّفل إلى الكهْل. في لقاء حَـلاب، كلقاء السّحاب. وبعد التّرحاب والتحيّة، والقُبُلات الروحيّة. طافتِ الصّحون بانتظام، حافلة بأنواع الطّعام. وجالت الكؤوس بالعصير، رفْقة الماء النّمير.كما دارت بالشّاي الأقداح، وما سكتْنا عن الكلام المُباح.

(١) يأسو: يداوي، ومنه كان الطبيب آسيًا والأطباء أُساة وإساء.

إذْ مرّ طيْف الذكريات، فتعالَتِ الضّحكات، حتى بدَت الثَّنِيّات[1]. بيضاء كالغيوم، برّاقةً كالنّجوم. مصفوفة العنقود، كالدُرّ في العقود.. وسبحان مَن جعلها للجَمال آية، وللحُسْن راية. وهيّأها لتقْطع الطعامَ كالمُدَى[2]، وتمْضغ وتطْحن على هُدى. وتصنع مع الحنجرة واللّسان نايًا يغرّد، وأوتارًا تعزف وتُزغرد.

وبينما أسامر الحضور منَ الأنام، وأتأمّل الأسنان في الأفهام. إذْ برسالةٍ على الجوّال، من مُستوصف (الحـوال)[3]. حيث أناوب كلّ مساء، مناوَبة الصّيف للشتاء. لأسترَ عورةَ راتبٍ يسير، بالكاد يَعلف بضعة عصافير. تقول رسالة الجوّال: أين أنت يا سيّد أبقراط؟ يا مثالَ الدقّة والانضباط، وحامل الأوسمة والأنواط. ها هنا مريضٌ يعاني، عجِّل وإلّا اتُّهمتَ بالتَّواني[4]. وفورًا أوْمأْتُ للنَّظّارة، ففهموا بالإشارة. وعقّبوا بصوتٍ خفيض، حياة الطبيب مُلك المريض.

وما إنْ وصلتُ بأمان، مدخل عيادة الأسنان. حتى ألْفيتُ المعلول، في الرّدهة كالمخبول. مِن ألمه يَعوِي وينبح، وبالجدران يخْبِط وينطح. لا يَسْتتبّ في الجلوس على هيْئة، فيراوح بين ذهاب

(١) الثَّنِيّات: الأسنان الأربعة التي في مقَدّم الفم، ثنتان من فوق، وثنتان من تحت.

(٢) المُدى: جمع مُدية وهي السِّكّين.

(٣) الحوّال: حيّ شهير من أحياء مدينة السنبلاوين التي تنتمي إليها قريتِي كفر الروك.

(٤) التَّواني: التقصير.

وجَيْئة. تارةً يتأوّه كأسدٍ يزْأر، وتارةً يئِنّ كغريق يجْأر. يَستحْلفني بأغْلظ الأقْسام، أن أُغيثه من الآلام. ويَستحثُّني لخلْع ضرس، ينهشُه كسمك القرش. بعدما حظَر عليه المشروبات، سيّما الساخنة منها والمثلَّجات.كما حرّم عليه الرُّقاد، وحلّل له السُّهاد. كلّ هذا وزوجُه حوله تولْول، وبالسبّابتيْن تلوِّح وتهرْول. حينًا تصيح: يا سبْعي وبعْلي، وآونةً تهتف: يا جمَلي ووعْلي. وأخالها تَتعجّل ساعةَ رحيلِه، وتُدرّب نفسها على نحيبِه.

يقول أبقراط:

ما إنْ مدّدْتُه على كرسيّ ثمين، وأملْت إلى الخلف رأسَه الحزين. ثمّ تَناءى الفَكّان، وارتفعَت الوجْنتان.حتّى أبان عن فم مُوحش كغابة، أقرب إلى كتابٍ للباثولوجيا[1] رهْن السّبَّابة. إذْ به مِن كلّ علّةٍ شائبة، ومن كلّ مصيبة نائبة! ضواحك بالجير متكلّسة، وأرْحاء من السّوس متآكلة! لِثًى في القُبْح مُغْبرَّة، وأنياب مِن القَلَح[2] مُصْفرَّة! فيما بينها فتات خبزٍ ودجاجات، وسُؤْرة[3] فاكهةٍ وخَضراوات! أجملْتُ له مقولتي، وتلوْتُ عليه خُطّتي. الضّرس المتآكِل نخلعه بلا

(١) الباثولوجيا: علم دراسة الأمراض.

(٢) القلَح: صُفرة او خضرة قبيحة تعلو الأسنان نتيجة إهمال العناية بها.

(٣) سُؤرة: بقيّة.

إرجاء، إذْ لا أمل فيه ولا رجاء. وبعدها نتفرّغ لأكوام الجِير، الرّمادي كالقصدير. نُجليه جلْي السيراميك، وجلْي النحاس بالسِّتْريك.

ثمّ اهتبلْتُها فُرصة، فألقيتُ على مسمعه خُطبة.. أسنان الطفل عشرون، والكبار اثنتان وثلاثون. ستّة أضراس في كلّ فكّ، والقواطع أربعة لا شكّ. أمّا الأنياب فاثنتان، والضّواحك زوْجان. وهكذا تبلغ في الفكّ ستّة عشَر، وللطّعام لا تُبقِي ولا تَذَر. وفي شرع الإسلام، التّدخين حرام. ولا بدّ من المعجون والفرشاة، والسِّواك السُّنَّة المُهداة. أمّا المضْمضة في حقّ كلّ طاعِم[1]، فمَطْهرةٌ للّسان والثّنايا والبلاعم. ولمّا هزّ لي رأسَه كأحبّتي الهنود، اعتبرْته قد وعَى البنود، واستوعب المقصود. ثمّ شرعتُ في التنفيذ، بعدما توكّلتُ علي الله العزيز. فمَن تَوكّل على مولاه، أبدًا لا خاب مسعاه.

عبّأتُ المُخدّر في مِحقنِه، وغرسْته في لِثّته. عميقًا حول جذر الضّرس التّالف، وتركته يعبثُ بالهاتف. وما إنْ لخَلْع الضَّرس تَجهّزْت، وفي الأدوات دقّقْت، وعلى التعقيم أكّدْت. حتى رأيتُه يَجفُل[2] كطفلٍ غِرّ[3]، ومِن الكرسيّ يقفز كالهِرّ. وبذراع زوجه تَعلّق ولاذ، فانبرَت تُحامي عنه كأستاذ. طالما

(١) طاعِم: آكِل.

(٢) يجفُل: ينفر ويشرد.

(٣) الغِرّ: الذي ينخدع إذا خُدع.

أنّ الدواء قد نجَع[1]، وزال عنه الوجَع. فلِمَ نقلع الضّرس؟ ونفقد عضوًا كالتُّرس[2]؟ دعْه يَهْشم به الجوْز، ويَهرس اللوْز. أم تُريده أدْردا؟ لتكسب مِن ورائه مبلغا! ألَا تدري أنّ خلع ضَرْس، يوازي إزهاق نَفْس؟ كظمتُ الغيظ في فؤادي، وألجمتُ من اللَّحْي[3] لساني. ثمّ بيّنتُ لهما الخطَل، وحذّرتهما من الخطَر. ولكنْ هيهات، ثمّ هيهات. أذُنٌ مِن طين، وأذُنٌ من عجين. فزفَرْتُ من الضِّيق، وتذكّرتُ قول القَريض:

«إذا كنتَ ذا علمٍ ومـاراك جـاهلٌ
فـأَعرِض فـفِي تـرْكِ الجـوابِ جـوابُ
وإن لم تُصِب في القولِ فاسكت فإنّما
سُكوتُك عن غير الـصّـوابِ صـوابُ»

⏮ يقول ابنُ قحطان:

وبعد أيّام يسهُل فيها العَدّ، آبَ يابس الفكّ منفوخ الخدّ. مِن الحمّى يرتجِف، وبالعباءة يلتحِف. فما أنّبتُه ولا بكّتُّه، ولا لُمتُه أو عاتبْتُه. بل أغضيْتُ عمّا بدَر، وعفوْتُ عمّا صدَر. فمَن رام السّعادةَ تَغافَل ولم يبالِ،

(١) نجَع: نفع وظهر أثرُه.

(٢) التُّرس: صفحة من الفولاذ يحملها الفارس المحارب لوقاية الوجه والرأس من ضربات سيف خصمه.

(٣) لحَى الشخصَ: أي قبّحَه ولعنه.

وترك النّصالَ تتكسّر على النِّصال. ثمّ أفهمْتُه أنّنا بصدد التهابٍ حادّ، والعلاج الآن بالمضادّ. خمسة أيام قد تطول، وبعدها يمكننا العدول. فوافق على الفوْر، وقدّم لي العُذْر. بعدما أقرّ بغلَطه، واعترف بخطَئه. فما زدتُ على أن نصحْتُه، ولِلحقّ أرشدتُه. أطِعْ طبيبَك كما تُطعْ ضميرَك، وخالِف هواك كما تُخالف شيطانك.. فشكَرني ودعا، ولِتمام النّعمة رجا.

ولّما كنتُ مشهورًا بين الجموع، برسْم البسمة على مُحيّا كلّ موجوع. سألْتُه بخُبثي المعروف، عن زوجه الملهوف. قال هي كالهدهد مِن بلقيس، في قصَصها النّفيس. مكثَت غير بعيد، تتنصّت وتكيد. فقلتُ هذا هو الكلام، احملْ إليها السّلام، ومِن الله المَلام. وعساها يوم الأحَد، يظفر بها أسَد. يُمزّقها بأسنانه، ويُطعمها أشبالَه وأقرانَه. فضحك حتى كرْكر، وأمَّن على الدّعاء وما أنكَر! ومِن ثقب الباب كما توقّعْت، جاء الردُّ سريع البغْت. عليكَ السّلام يا طبيب، وعساكما في القريب، للقطار قضيب. فأمسكْتُ بالكُلاب[1]، وعدوْتُ نحو الباب. لأقرض منها اللّسان، ويا حبّذا الشّفتان. ولكنّها كالنّعام، أطلقَت للريح الأقدام.كحُمُر مستنفرة، فرّتْ من قسْورة. وصارت كفصّ ملحٍ ذاب[2]، أو شبح في سرداب.

(١) الكُلاب: أداة لخلع الأسنان.

(٢) فصّ ملح ذاب: مثل شعبي يُضرب لاختفاء الشيء فجأة، وبلا أثر يدلّ عليه.

المقامةُ الواحدة والعشرون

وتُعرَف بالوِلاديّة

روَى أبقراط بن قحطان قال:

كنتُ طبيبًا تحتَ الاختبار، يُنادونَني تَأَدُّبًا طبيبَ الامتياز. وما أَشبهني بساقية تدور، لتروي الأرضَ البُور! والامتياز- لَمن لا يعرف- مرحلةٌ رماديّة، بين رحلة تعليميّة، وأخرى عمليّة. فلا أنا بطالبٍ يذاكر ويقاسي، ولا بطبيبٍ يعالج ويواسي. وكأنّها حياة برْزخيّة، تتوسّط دنيا تسعى فيها البَرِيّة، وآخرةً نُجازَى فيها بالسّوِيّة. ومدّتها الآن عام، وفي طريقهم لإضافة عام.

والواقع أنّنا حاضرون فيها إنْ غبنا، وغائبون إنْ حضرْنا. إذ غير مسموح لنا بالتّشخيص والمداواة، إلّا بإشراف كبار الأُساة[1]. ولا نُعار من الرّؤساء الانتباه الكافي، ونُخشى من المرْضى عند التَّداني. وبالكاد نُعامَل كزوائد، ضئيلة الفوائد. وأحيانًا كحمام زاجل، ينقل الرّسائل، مِن وإلى المَعامل! وشرّ البَليّة، أنّنا نتقاضى مكافأةً شهريّة، أخجل من ذكرها علانية. إذْ لا تتجاوز بقْشيش النّادِل، وإكراميّة السائق تُعادِل!

وبعد مروري بأقسام الباطنيّة والأطفال، ثمّ الجراحة والاستقبال. كان عليّ أنْ أحِيد، إلى قسم النّساء والتوليد.. ذاك الذي للأمومة معْقل ومرتع، وللطّفولة مهْبط ومنبع. إذْ تمتزجُ فيه آلامُ الحوامل من النِّسوان، بآمال المواليد من الفتيات والفتيان. وقد اكتشفتُ فيه نفسي، وما ضاق به يومي ولا أمْسي. على ما به من سهَر وأرَق، وما يكتنفه من نصَب ورهَق. فأتقنتُ الولادة الطبيعيّة، وكذا القيصريّة. فضلًا عن شقّ العِجان[2] بالمِشراط[3]، واستخدام الجِفت

(١) الأُساة: الأطبّاء.

(٢) العِجان: هي المنطقة الملساء الواقعة بين كيس الصفن والشرج في الذكور، وبين المهبل والشرج في الإناث، وقد يَجرِي شقّها أثناء الولادة لجعْل فتحة المهبل أوسع وخروج الجنين بسهولة أكبر.

(٣) المِشراط: آلة يستخدمها الجرّاح لشقّ الجلد شقًّا سطحيًّا.

والشفّاط. علاوة على كحْت[1] الأرحام باقتدار، والفحص بأجهزة السّونار[2]. ومتابعة الحُبْليات، ومداواة العاقِرات.

يمرّ الشّهر تلوَ الشّهر، والحرّ تلو القرّ، والقِسم لي مستودَعٌ ومستقَرّ. مرابِطٌ به كمَقْدِسي، ومتيقّظٌ فيه كبوليسيّ. أناوب عن الأقران، بأريحيّة وامتنان. حتى شكُّوا في حالي، وحارُوا في فِعالي. فمنهم مَن قال: هو أحدُ المطاريد، مطلوبٌ للثأر في الصّعيد! ومنهم مَن همس: لعلّه شريدٌ بلا حسَب، ولقيطٌ بلا نسَب! ومنهم مَن هَرَف: ربّما مِن قوم داعش، يتوارى ويخطّط لفِعلٍ طائش! وهذه بالطّبع أباطيلٌ وأسمار، وجزافٌ كجزاء سنِمّار. نَجَمَت عن سوء ظنّ وغيرة، تُحِيل الفضيلةَ إلى جريرة. وتُصيِّر القِدِّيس ذا الخيْر، إبليسًا ذا ضيْر! ومِن أجل هذا تجتمع عند الله النفوس، وتُنشَر الطُّروس[3]. لِيعلم ساعتَها الظالمون، أيّ مُنقَلبٍ ينقلبون. أمّا المؤمنون الصّادقون، فبنصْر الله يفرحون، وبالنّعمة والفضل يَستبشرون.

---

(١) كحْت الأرحام: عملية جراحية تُجرى في حالات معيّنة بغرض تنظيف جدار الرحم الداخلي من وجود أي جسم غير طبيعي قد يؤدي إلى حدوث نزيف او التهابات.

(٢) السونار: جهاز يستخدم الأمواج الصوتية المرسَلة والمنعكِسة لفحص الأحشاء، ومنها الجنين داخل الرحم.

(٣) الطُّروس: الصحف.

يقول أبقراط:

وبعدَ انقضاء الدُّربة[1]، طويْتُ سِفْر الغُربة. وعدتُ لقريتي النائية، في حِضن البادية. ألثم يدَ أبٍ يكدح ليلَه ونهارَه بلا فاصل، وأَحْدِب على إخوةٍ زُغْب الحواصل[2]. ولكنّي والحقّ وجَمْت، وللعودة همْمْت. إذْ وجدتُ أمّي الحبيبة على حالها، حاملٌ في تِسعها. فقد غبْتُ غيْبتي، وحَسَبتُ حِسْبتي، وقدّرتُ- خطأ- ولادتَها قبل أوْبتي.

وبعد أنْ مرّ اليوم واليوْمان، وسط الأهل والخِلّان. ونَعَمْنا بعيشةٍ راضية، لا تُسمَع فيها لاغية. إذْ في مطلع ليْل، يهطل مطر كالسّيْل. وتفيض بالماء الأودية، وتصبح كالأنهار الجارية. حتّى تقطّعت الدروب، فلا دخول ولا هروب. وصرنا كغَزّة تحت الحصار، لا غُدوّ ولا فرار.

وفي جوْف هذا الليل البهيم، وسبحان مَن له التّدبير. أتَت الرياح بما لا تشتهي البارجة، وكأنّي «أردتُ عَمْرا وأراد اللهُ خارجة»[3]. إذْ حَمِيَ للولادة الوطيسُ، وأنا في الدّار حبيس. بل أَعلن الجنينُ بدْء مولده، وأطلّ برأسه من مرقده. وليس في البيت سوى أفراخ في مُهُدها هُجّع، وأب على مصلّاه سجّد رُكّع. ويا له

(١) الدُّربة: التمرين والتدريب، ويُقال: درِب بالشيء، أي اعتاده وأُولع به حتى أصبح حاذقًا بصنعه.

(٢) زغب الحواصل: صِغار لم يبلغن سنّ الحُلُم.

(٣) «أردتُ عَمْرا وأراد الله خارجة»: مثَل له قصة شهيرة في التاريخ الإسلامي زمن سيدنا عمرو بن العاص، ويُضرب لمن أراد شيئًا وحصل له خلاف ما يريد.

من موقف شديد، يَشيب له شَعر الوليد، ويذوبُ من وقْعه الحديد. ولا كَتَبه اللهُ على عدوٍّ لدود، أو صديق ودود.

ولمّا خشيتُ على رحِم أمّي من المزْق، وعلى أخي الجنين مِن الخنْق. تفكّرتُ أنّ الضّرورات، تُبيح المحظورات. وقِستُ على أكْل الميْتة عند الاندثار، والتلفُّظ بكلمة الكفر عند الإجبار. ثمّ حدَّثتْني نفسي أنْ لا فرار من المقدور، حتى لو أشرقَت الشّمس في الدَّيْجور[1].

ومِن كرَم الله السّلام، أنْ تمّت الولادة بسلام. إذْ جاء الجنين في وضْع الأمان التّام، المقعدة في الخلْف والرأس في الأمام. وما فعلتُ سوى استقباله، بعدما قطْعت للسُرّ حبالَه.. وهكذا استقبل الحياة وصاح، وهمستُ في أذنه حيّ على الفلاح. وسبحان مَن خلقنا في أطوار، وميّز كلًّا منّا بهيئة لا تخطئها الأنظار! ثمّ أعادنا إلى الرّمْس، كأن لم نكن بالأمْس.

وبينما أنا في بحرٍ من الخجل أختلِج، ووددتُ لو أنّ الخبرَ ينمحي ولا ينبلِج. إذْ بأمّي وسط صويْحباتها تزهو وتَتيه، بأنّ ابن بطنها الطبيب النّبيه. هو مَن قام بالتوليد، وقرَّب البعيد. بل أسرفَت في التّمجيد، وقصّت من الأساطير العديد. فروَت كيف أنّ ولادتها كانت كقرصة أذنٍ خفيفة، أو شكّة دبُّوسٍ لطيفة! ثمّ زادت- ويا لَلعجَب- أنّها قد قامت من فوْرها، إلى مطبخها وقِدْرها! وإمعانًا في قهْري، مِن حيث

(١) الدَّيجور: الظُّلمة.

لا تدْري. أعربَت عن عزمِها الأكيد، على إعادة الكَرّة من جديد! ففغرَت الحريمُ الأفواه، وتَملّكهنّ الانتباه. حتى بتْنَ مجذوبات، كنسْوة امرأة العزيز المُتّكئات. وودَّت كلُّهنّ لو مِن فورها حَبلت، وعلى يديَّ ولَدت. ويبدو أنهنّ جُهّال أغفال، لم يسمعْن قوْلَ الأمثال. القردُ في عيْن أمّه غزال، والخنفساء في عيْن مَن ولَدتْها ملِكة جمال.

بقول ابنُ قحطان:

ولأنّ النّساء أذْيع مِن إذاعة، وأشْيع مِن إشاعة. فقد غزَت أخباري المسامع، واستبْشرت بها الأضالع[1]. حتّى صرتُ الطبيب الناهي الآمِر، وتقاطرَت إليَّ النّسوةُ رِجالًا وعلى كلّ ضامِر. بعدما بتُّ لهنّ المُعْتِق، من سفرٍ يَشُقّ ويُرهِق. ومِن جرّائه أجنّةٌ أُجهضت، وأرواحٌ صغيرة أُزهقت.. ولا أخال هذه الحُظوة، إلّا ببركة تلك الدّعوة. مِن قلبِ أُمٍّ لي صَبّة[2]، في ساعة مِحْنةٍ صعبة. ولله درّ الشّابّي أبي القاسم، القائل:

«حَرَمُ الحيـاةِ بطُهْرها وحنانـِها هل فوقه حرَمٌ أجلُّ وأقدَسُ؟
بُوركْتِ يا حرَم الأمومةِ والصِّبا كم فيكِ تَكتملُ الحياةُ وتَقدُسُ»

* * *

(١) الأضالع: جمع ضلع، وهي كناية عن الصدور.

(٢) صَبّة: مُحِبّة حبًّا شديدًا.

المقامةُ الثّانيةُ والعشرون

وتُعرَف بالشَّيْخِيَّة

أخبرَنا أبقراط بن قحطان، قال:

ضمنَ رحلتي العمليّة، كُلِّفتُ يومًا بمسئوليّة. كنتُ فيها الطبيب الأمين، على رعاية نفَرٍ من المسنِّين، بلَغوا عتبة الستّين. فشاب منهم الشّعْر، وتَقوَّس الظهْر. كما اختلجَت اليدان، ووقَـرَت الأذنـان، وعشَت[1] العينان. إضافة إلى جلودٍ تَغضّنَت، وعظام تَضعْضعَت. حتّى صاروا على ثلاثةٍ[2] يمشون، أو على أربعةٍ كالأطفال يَحْبون.

(١) عَشَت العينان: أي ساء بصرُها ليلًا ونهارًا.

(٢) يمشي الإنسان على ثلاثة حين تنضم العصا إلى القدمين متكئًا عليها.

للضغْط أقيس والنّبض أحسّ، وللصّدر أقرع والقلب أجسّ. كما لسلامة الدّماغ والأعصاب أدقّق، وفي وجود ألزهايمر والاكتئاب من عدمه أحقِّق. وفي هذا وذاك عليّ أن أرْفِق، فعظامُهم أرهف من خيط يلْفِق.

وقد كنّا على استعدادٍ كفريق هُمام، لديه الصّلاحية والأَختام. لصرف كافّة صنوف الأدوية، ومدّ يد العوْن حتّى لساكِني الأوْدية. فهذه كَرَاسٍ متحرِّكة لمُعاق، باليد أو الكهرباء تُساق. وهذه نظّارات وسمّاعات، وعُكّازات وحِفَاضات. كلُّ هذا بالمجّان، على سبيل الشكر والامتنان. فلهم في رقابنا دَيْن، لا يوفِّيه دمع العيْن. وفي خدمة العجائز، أسْنى الجوائز. ولعلِّي لا أبالغ ولا أُزيد، إن قلتُ إنّنا كنّا نوفّر الجليس للوحِيد. ونبني البيوتَ للفقير المَهيض[1]، ونُعدّل[2] هيئة المراحيض. لتناسِب رُكَبًا تَيبَّسَت، وفِقَرًا تَخشَّبَت. حتّى أعْجَزَها القيامُ من قعود، والركوعُ والسّجود.

وفي إحدى الزّيارات المنزليّة، ضمن فوج تامّ الأهْليّة. حللْنا بشيخٍ طاعِن، يفتتح عقدَه الثامِن. لا زوج له يُؤنسُه، ولا ولَد له

(١) المَهيض: الضعيف، العاجز، لا عون له.

(٢) نظر لآلام الظهر والتهاب المفاصل يناسب المسنين تلك المراحيض ذات القاعدة المرتفعة كالكراسي للجلوس عليها.

يُقيمُه ويُجلِسُه. يسكن بين جدرانٍ أربعة، واطئةٍ كصوْمعة. مسقوفةٍ بصفيح، لا يصمُد لمطرٍ أو ريح. ولا تَصلُح إلّا قنًّا[1] لداجنة، أو خزينةً لخازِنة. لقيناه ممدَّدًا على حصير مَهين، علمْنا بعدها أنّه يخصّ جيرانه (الطيّبين). قدَمُه كقدم الفيل متورّمة، مِن كُلْيةٍ مُتعَبة نائمة. وأنفاسه متسارعة، من عضلة قلبٍ في درب العافية ضائعة. وبعيْنه مياه بيضاء، تَرى المَليحةَ سمْجاء. أظفاره بالمِتر تُقاس، ويْكأنّها للدّوابّ مِنخاس[2]. تراه في النّهار زاحفًا على الأرض كالدُّباء[3]، والخيار والبطيخ والقِثّاء. بعدما دهمتْه خشونة الرُّكَب، وركضت إليه صنوفُ الكُرَب. وتراه في الليل مستلقيًا على قفاه، يَستجدي نومًا جفاه. مفترِشًا مرْتبةً شوْهاء، لونها كالحصباء، لا تدري لها أمامًا مِن وراء. ثمنها زهيد، ويزهد فيها الطّريد. وحدِّثْ ولا حرج عن رثاثة ألبسته، ورداءة رائحته!

يقول أبقراط:

وبدون أدْنى لأْي[4]، تَوصّلنا إلى سديد الـرأْي. بنقْله إلى المستشفى، لِتلَقِّي العلاج الأوْفى. ثمّ تأمين جليس نَبيه، يرعاه

(١) القنّ: بيت الدّجاج.

(٢) مِنخاس: عصا طويلة في رأسها حديدة تُنخَس بها الدواب وتُهمز خاصة بقر الحراسة.

(٣) الدُّباء: نبات القرع.

(٤) لأْي: جهد.

كزوجه وبَنِيه. فيُطعمه ويسقيه، وفي وحدته يُسلّيه. مع بناء بيتٍ أنيق، بعيْش الآدميِّين يليق. ولمّا شُرِع في التّطبيق، تَبيَّن ما لا نحتملُ ولا نطيق. إذ إنّ الجيرانَ طيِّبون، ونظير لقَيْماتٍ بها يتصدّقون. وقَّعوه عقدًا لا ينقصه التّصديق الصريح، ببيْع الأرض وما فوقها مِن حجَر وصفيح. بما يعني أنّه صار زائرًا للدّار، لا مالكًا للعقار! فوَجَم جمْعُنا، وترقْرق دمعُنا. على قلوبٍ أبرد من الجليد، وأَصمّ من الجلاميد[1]. تستأْسد على الضّعيف، وتستنْسر على الأليف. بل ضربْنا كفًّا بكفّ، وسالَ ماءُ العين وما كَفّ، وأوشكت السّاق بالساق تلتفّ. على ما في الأرض من مظالم، تُرتكَب في حقّ ضِعاف الأوادم[2]. بلا ضميرٍ يردع، ولا دِينٍ يمنع. مع أنّ اللهَ عليهم شهيد، وأقْرب إليهم من حبل الوريد. ولأفعالهم بصير، وبتدبيرهم خبير. قد يُمهل الأحقاب، ولكن لا يُهمل العقاب!

ويبدو أنّ المُسنّين، حِيطةٌ واطئةٌ للكثيرين. فقد مررْنا أحد المَرّات، بشيخٍ أنْفق مِن عمره سنوات، ومِن عرَق جبينه لِترات. ما مكّنه من بناء بيتٍ رحيب، يسكنه المريض فيَطيب. إذْ تغمره الشمْس حتى الأصيل، ويتخلّله النّسيم العليل. وما إنْ كَبَر الأبناءُ

(١) الجلاميد: جمع جلمود، وهو الصخر.

(٢) الأوادم: جمع آدم، وهم الناس.

الأماجد، واشتدّ منهم السّاقُ والسّاعد. حتى تحوّلوا من حمامة ورْقاء، إلى حيّة رقْطاء. فاحتلُّوا من البيت الرأس، وأوْدعوه غرفةً كالرّمس[١]. ضيّقة الحَواش[٢]، فقيرة الرِّياش[٣]. مُغمَضة النّوافذ، وحيدة المَنافذ! وكأنّهم المَعْنيُّون، بنظْم شاعرٍ يقول:

«فيا عجبًا لَمن ربَّيتُ طفلا ... أُلقّمه بأطراف البَنان
أُعلّمه الرماية كلّ يوم ... فلمّا استدّ ساعدُه رماني
وكم علّمتُه نظمَ القوافي ... فلمّا قال قافيةً هجاني
أُعلّمه الفتوّةَ كلّ وقتٍ ... فلمّا طرّ شاربُه جفاني»[٤]

⏮ يقول ابنُ قحطان:

وعند سيبوَيْه، وابن خالَوَيْه. ليس الشّيخ مَن تَفقّه وتَعمَّم، ولمكارم الأخلاق تَمَّم. ولا مَن أَثْرى وتَعطّر، أوْ حكَم وتَأَمّر. ولكنّه مَن غرَبت شمسُه فشاخ، وبمَفْرِقَه الشّيْبُ أناخ. وحنّ إلى فتوّته، حنين العليل إلى صحّته.. وهؤلاء في حنيف شرْعنا، وكذا قديم عُرْفنا. برَكة الزمان، وحكْمة البلدان. بهم نستضيء ونهتدي، وعلى أكتافهم نعرج ونرتقِي. والويْل والثّبور، وعظائم الأمور، لَمن

(١) الرّمس: القبر مستويًا مع وجه الأرض.
(٢) الحواش: جمع حاشية، وهي الجانب والطرف من كل شيء.
(٣) الرِّياش: الأثاث.
(٤) الأبيات للشاعر معْن بن أوْس المُزَني (ت ٦٨٣م).

على حقّهم يَجور. وحَريٌّ بالقاصي والدّاني، أن يحفظ قولَ البارِي: {وقضى ربُّك ألّا تعبدوا إلّا إيّاه وبالوالدين إحسانا إمّا يبلغنّ عندك الكِبر أحدهما أو كلاهما فلا تقُل لهما أفّ ولا تنهرْهما وقُل لهما قولًا كريمًا واخفِض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيرًا} الإسراء ٢٣:٢٤

* * *

الخاتمة

كما للبداياتِ من نهايات، ها هنا انتهتِ المقامات. برحلتها الذهبيّة، في بستان لغتنا العربيّة. فهنيئًا بالقفول، وسلامة الوصول. راجيًا المعذرة، وتمام المغفرة. من السّهْو والتقصير، والخطأ اليسير. فكلّ بني آدم خطّاء، ومِن الكَمال براء. والعُقْبى لَمَن عذَر، ولكسْر أخيه جبَر. فأقال العثرات، وغفر الهفوات. وتَجاوز عن الزَّلَل، وتَخطّى الخلَل. متَأسّيًا برسولنا الأسْوة، وأخلاق سلَفنا القدْوة.

هذا.. وأدعو اللهَ الفتّاحَ العليم، الرزّاق الكريم. أنْ لا يجعلنا ممّن يعمِّرون الدُّور، ويخرِّبون القبور. ويقينا غائلةَ الشّبهات، وغواية الشهوات. ويُحصي تلك المقامات ضمنَ الكلِم الطيِّب، والوابل الصيِّب. فتمكث في الأرض عددَ سنين، وينتفع بها النّاسُ إلى يوم الدِّين.

المؤلِّف في سطور

- د. منير لطفي محمّد علي.
- مواليد ريف الدقهلية (كفر الروك- السنبلاوين) ١٩٦٥م.
- تَخرّج في كلية طب المنصورة ١٩٨٩م (جيد جدًّا مع مرتبة الشرف).
- استكمل الدراسات العليا في الأمراض الباطنية جامعة الزقازيق ١٩٩٦م (جيد جدًّا).
- تَخرّج في الأكاديمية الإسلامية المفتوحة بالمملكة العربية السعودية (امتياز).
- عضو نقابة أطباء مصر، استشاري الأمراض الباطنية
- نشر العشرات من المقالات والمشاركات في الجرائد والمجلات والمواقع الإلكترونية.
- صدَر له:

١ – السكّري..الداء والدواء، دار البدر، ٢٠١٤م

٢ – أطباء فوق العادة، دار عالم الثقافة، ٢٠١٦م

٣ – الغروب الدافئ، دار الأندلس الجديدة، ٢٠١٧م

٤ – طريقك إلى التميّز، دار عالم الثقافة، ٢٠١٧م

٥ – رحلتي مع مرض السكّري، دار اليقين،٢٠١٨م

٦ – بستان العافية، دار اليقين، ٢٠١٨م

٧ – مفاتيح القراءة، دار اليقين، ٢٠١٨م

٨ – حياتنا بعد الستِّين، دار مدارك، ٢٠١٩م

٩- معا نرتقي، دار ألوان، ٢٠٢٠م

١٠- على خطى لقمان، دار ألوان، ٢٠٢٠م

١١ – إضافة إلى كتب أخرى قيد الإعداد والتهذيب

للتّواصل..

Dr36444@yahoo.com

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
– الإهداء	7
– المقدّمة	9
- (١) **المقامةُ الكَيديّة:** وتتضمّن كيدَ زوجة أبقراط للإيقاع بمدرّس ابنِها في الفصل، بعد أنْ أساء التصرّف حياله، وتَسبَّب له في حرج بالغ وفضيحة مدوّية.	15
- (٢) **المقامةُ الهاتفيّة:** وفيها يَسبح أبقراط مع هاتفه الجوّال، ويخوضُ غمارَ مواقع التواصل الاجتماعي، ناقدًا لأحوال أهلها وسلوكياتهم.	23
- (٣) **المقامةُ الرِّئاسيّة:** وتتضمّن افتتاحَ الرئيس لمستشفى، وتكليف أبقراط بالحديثِ أمامه، فيخرج عن التّعليمات ويضع نفسَه في مأزق صعب.	31
- (٤) **المقامةُ العُنوسيّة:** وخلالها يتقدّم أبقراط للزواج من فتاة يغالي أهلُها في مهرها، وكأنّهم دعاة للعنوسة.	41

الموضوع	الصفحة
- (٥) **المقامةُ الكِتابيّة:** وفيها ينشَط أبقراط لتأليف كتاب في الوعي الطبي والثقافة الصحية، ويبيع حُليَّ زوجه في سبيل طبع الكتاب ونشره، ولكنّه يبوء بخيبة أمل من العيار الثقيل.	49
- (٦) **المقامةُ المَسجِديّة:** وفيها يحكي أبقراط عن الاستشارات الطبيّة التي يتطفّل بها بعض المرضى في غير موضعها، متّخِذًا المسجدَ كأنموذج.	57
- (٧) **المقامةُ الحجازيّة:** وفيها يتولّى أبقراط الإشراف الطبي على حملة للحجّاج، ويصادف مواقفَ غريبة وعجيبة أثناء أداء النُّسك وبعده.	65
- (٨) **المقامةُ السّياحيّة:** تتضمّن علاج أبقراط لسائحة روسيّة داخل قرية سياحيّة، ثمّ سرْده لمثالب عاينها داخلَ القرية أثناء تجواله عبر جنباتها.	75
- (٩) **المقامةُ البحْريّة:** وفيها يصحب أبقراط أصدقاءَه المقرَّبين لرحلة بحْرية، ثم ينزلون بجزيرةٍ غير مأهولة تُفاجئهم بما ليس في الحسبان مِن منغِّصات.	83
- (١٠) **المقامةُ المنزليّة:** وتتضمّن استدعاء الطبيب أبقراط في زيارةٍ منزلية طريفة ومثيرة، بغرض علاج مريضةٍ داهمتْها نزلة معويّة حادّة.	91

الموضوع	الصفحة
- (١١) **المقامةُ العِشْقيّة:** وفيها يباشر الطبيبُ أبقراط حالة فتاة أقدمَت على الانتحار عبْرَ تناول سمّ الفئران، وكيف أنّ عشقها لفتاها كان سببَ انتحارها وسبيل شقائها.	99
- (١٢) **المقامةُ الزّوجيّة:** وخلالها يكشفُ أبقراط كذب زوج غرّرَ بزوجته ولم يُعلمها بزواجه الأوّل، فيقع الصّدام بين ثلاثتهم.	107
- (١٣) **المقامةُ السُّكّريّة:** وتتضمّن إصابة (إسماعيل) بالسكّري، ومنْعه من تناول النّشويات والسكّريات، بما فيها (المحاشي)، هو ما طربت له الزّوجة، إذ كانت تُذيقها الأمَرّيْن وتستنزف وقتها وجهدها.	115
- (١٤) **المقامةُ الكَلْبيّة:** وفيها ينهش جرْوٌ مسعور عاملَ المزرعة (سليم)، فيقع في حيصَ بيص مع أقرانه مخافةَ إصابته بداء الكلب المميت.	123
- (١٥) **المقامةُ الأنْفيّة:** وتتضمّن مأزقَ ناظر مدرسة، حيال ما اعتقده لحميّة بأنف طفله، وسعْيه لاستئصالها بعمليّة جراحيّة لا يملك نفقتها.	131
- (١٦) **المقامةُ الكُرَويّة:** وتتضمّن عمل أبقراط كطبيب لفريق كرويّ، وقيامه بإنقاذ لاعب مشهور ابتلع لسانَه عرضًا أثناء المباراة، ثمّ اعتزاله الطّب الرياضي بعدما افتقرَت نفسه إلى التقدير اللّائق من الجماهير المهووسة كرويًّا.	139

الموضوع	الصفحة
- (١٧) **المقامةُ السّمْنيّة:** وفيها يحاربُ الطبيبُ أبقراط سمنةً مفرطة أصابت جارَه المترَف، وذلك عبر حميّة غذائيّة، ونجاحهما في التخلّص منها.	149
- (١٨) **المقامةُ الامتحانيّة:** وتتضمّن تَعرُّض أبقراط للابتزاز المالي من قِبل مريضٍ مزمن، إبّان أدائه للامتحان النهائي في الطبّ.	157
- (١٩) **المقامةُ الحَفْليّة:** وفيها يروي أبقراط وقائعَ حفل تخرُّجه في كليّة الطبّ، وعجزه عن شراء ما يلزم من زيّ رسمي لذلك الحفل، وتورُّطه في استضافة مدعوّين هبطوا عليه دونَ ترتيب.	165
- (٢٠) **المقامةُ الضَّرْسيّة:** وتتضمّن مناظرة طبيب الأسنان أبقراط لمريضٍ يتألّم من ضرسٍ تالف، ثمّ إجفال المريض وإعراضه عن الخلع بتحريضٍ من زوجته، قبل عودته بمضاعفات عضّ عليها أصابعَ النّدم.	175
- (٢١) **المقامةُ الولادِيّة:** وفيها تَفرض ظروفٌ قاهرةٌ نفسَها على أبقراط الطبيب، وتَضطرّه إلى توليد والدته، ويكون ذلك الاضطرارُ سببًا في شهرته كطبيبٍ للنساء والتوليد.	183

الموضوع	الصفحة
- (٢٢) **المقامةُ الشَّيْخيّة:** وفيها يروي الطبيبُ أبقراط تفاصيل مؤلمةً لزيارة قام بها إلى مُسِنٍّ سطا جيرانُه على بيته، وإلى آخَرَ عقّه أولادُه وجاروا عليه.	191
- المؤلّف في سطور.	199
- الخاتمة.	200
- فهرس الموضوعات.	203

تمّ بحمد الله

مقامات أبُقراط

هذا الكتاب..
مقامات بهيّة، بماء الذّهب مطليّة، تُضارع ما خطّه الأوّلون من إبداعات، وما تقدّم من فاخر المقامات. فالحسن لها عنوان، وهي والظّرف صنوان، وفيها من دروس الحياة، وأخبار الرّواة، وحكمة العقلاء، وآداب الفضلاء، وبيان السّادة البلغاء. أمّا كاتبها فطبيب حاذق في مهنته، وكاتب سامق في رتبته، جمع بين الحكمة والأناة، واللّفظة المُحلاة، تأتيه الكلمات طائعة، فإذا بها للبهجة صانعة، ولمستوف الأدب جامعة، طويل النّفس في الإبداع، قادرٌ على السّبر والإمتاع، فالقارئ به محظوظ، وحريٌّ بأن تكون للدّراسة منه حظوظ، إذ هو مستحق لكل حفاوة واهتمام، ونقدٍ وحفظٍ وإلمام

د. وليد كساب